نحو النظريَّة

نشوءً

تأليف

أ د. عقيل حسين عقيل

2020م

الموقع الإلكتروني: (موقع الدكتور عقيل حسين عقيل)

أو: Dr-Aqeel.com

المحتويات

المقدِّمةُ 4

تمهيد 6

النُّشوءُ..13

الانفتاق الكوني العظيم..18

انفتاق الأرض وهبوط آدم 26

خلق الشيء ونشوؤه 34

أصل النّشوء البشري 41

تطوّر نشوء الإنسان..43

الحلقة المفقودة missing link..49

نشوء الإنسان مقوّم..54

نشوء الأزواج..58

نشوء التزاوج 60

الخَلق ثابت والنّشوء متبدِّل..68

التكيّف بقاء 74

النّشوء..78

بداية ونهاية 78

نشوء النِّهاية العدديّة 89

المتعرّف عليه 91

غير المتعرّف عليه 91

الواحد البداية والنّهاية 92

الواحد كمّا وصورة..95

النشوءُ حركةً وفعل..98
المؤلّفات..149
المؤلّف في سطور 164

المقدِّمةُ

النشوء: نبات من إنبات، وإحياء من أحياء، وإيجاد من إيجاد، وهو: المترتب على المخلوق، فلا نشوء إلَّا بعد خلقٍ.

ويعد النشوء الضلع الثاني في مثلث (نحو النظريَّة) المتكوّن من: ضلعِ (الخلق)، وضلعِ (النشوء)، وضلعِ (الارتقاء) ولكلٍّ خصوصيَّته الوجوديَّة؛ فضلع الخلق خصوصيَّته الوجوديَّة (المستحيل)، وضلع النشوء خصوصيَّته الوجوديَّة (الإعجاز)، أمَّا ضلع الارتقاء فخصوصيَّته (الممكن وجودًا).

ومع أنَّ النظريَّة واحدة، فإنَّ أهميَّة إظهار هذه الخصوصيَّات جعلتنا نُخرج كلَّ خصوصيَّة من هذه الخصوصيَّات الفكريَّة في مؤلَّفٍ مستقل بذاته.

ومع أنَّنا فصَّلنا كلَّ خصوصيَّة في مؤلَّفٍ بمفرده، فإنَّ هذا الأمر لا يعني انعدام العلاقة، بل العلاقات متأسِّسة على بعضٍ؛ إذ لا وجود لنشوءٍ لو لم يكن الخلق سابقًا عليه، ولا وجود أيضًا لممكنٍ ما لم يكن النشوء سابقًا عليه.

وعليه.

فإنَّ فهم التموضع الفكري يستوجب فهم الوحدة الفكريَّة لمثلث: (الخلق ـ النشوء ـ الارتقاء) دون استقلاليَّة مؤلَّفٍ عن المؤلَّفين الآخرين.

ومع أنَّنا جعلنا من ملخَّص قاعدة النظريَّة مكوِّنًا من مكوِّنات كلِّ مؤلَّفٍ؛ فإنَّنا لم نكن قاصدين للتكرار، بل لنيسِّرَ للقراء ما يمكن تيسيره.

ولأنَّ النشوء نبات الشيء من الشيء، فهو وجود ما لم يكن من قبل موجودًا، كما هو نبات آدم وزوجه من الأرض نباتًا: {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا}[1].

إنَّه النبات المعجز الذي لا يكون إلَّا بأمر الخالق تعالى، إنَّه الخَلقُ من الخلقِ: (المنشأ منه نَشأةً)؛ ومن هنا يعد المخلوق من المخلوق منشأ منه إنشاءً.

أ د. عقيل حسين عقيل

القاهرة

2020

[1] نوح 17.

تمهيد

تأسّست النظريَّة على قواعد ثلاث: خَلق كوني دونه المستحيل، ونشوء خَلق دونه الإعجاز، وارتقاء في دائرة الممكن دونه الاثنين معًا، ومع ذلك؛ فالكلّ بين متحقّق ويتحقّق، والتساؤلات التي تأسّست عليها النظريَّة:

هل الكون خالقٌ، أم مخلوق؟

هل الكون نتاج الانفجار العظيم، أم إنَّه نتاج الانفتاق العظيم؟

هل الكون واحد، أم إنَّه متعدّد؟

هل النّشوء مستقل بذاته، أم إنَّه خَلق مترتّب على خَلقٍ؟

هل الخلق ارتقاء، أم الارتقاء لا يزيد عن كونه أملًا؟

هل الارتقاء في دائرة الممكن، أم إنَّه المتجاوز لها؟

هل الارتقاء هو أمل ماضٍ، أم إنَّه أمل آتٍ؟

هل الإنسان خُلق على الارتقاء، أم إنَّه المتطوّر من أجله؟

فإنْ كان الكون خالقًا فالخالق يخلق غيره، وإن كان المخلوق فالمخلوق كما يسبقه الخالق، يسبقه الحيِّز الذي يُظهره وجودًا، وإن كان كذلك فالزّمان والمكان لا يعدّان جزءًا منه، بل هما السّابقين عليه.

ولأنَّه لا شيء قبل الخَلق إلّا الهيئة التي سيكون المخلوق عليها شكلًا أو صورةً؛ فالهيئة غير قابلة للمشاهدة ولا الملاحظة، وهي لا تدرك

إلّا من قِبل الخالق، وهذا الأمر يشير إلى ضرورة المقدرة المطلقة لخلق أيّ شيء، ولا شيء.

ومع أنَّ البعض يرى أنَّ المخلوق خُلق من اللاشيء، فإنَّ بعض علماء الفيزياء أثبتوا أنَّ اللاشيء هو الآخر مخلوق، أي: لو لم يكن اللاشيء مخلوقًا ما تحدثنا عنه؛ ولأنَّه أصبح بين إثبات ونفي؛ فهو لو لم يكن ما كان بينهما.

والتساؤل هنا:

إذا أصبح البحث في اللاشيء بين يدي البحاثة في علم الفلك والفيزياء؛ فهل يعدّ اللاشيء سابقًا على كلّ سابق، أم إنَّ هناك سابقًا عليه؟ وهل السّابق عليه مخلوقٌ أم إنَّه الخالق؟ وهل الشيء كان نشوءًا من لا شيء، أمّ إنَّ النّشوء لا يكون إلّا من شيء؟

ولأنَّ النّشوء لا يكون إلّا في شيء؛ فهو في الوقت ذاته لا يكون إلّا منه.

ومع أنَّ الإنسان ارتقاء خُلق مسيّرًا في أحسن تقويم، فإنَّه اختيارًا انحدر في غفلة حتى أصبح أقل شأنًا عمّا خُلق عليه، وعندما لامس القاع سُفليّة أخلاقيَّة أخذته الصّحوة، والحيرة تملأ نفسه ندمًا؛ فاستغفر لذنبه؛ فتاب الله عليه، ولكن لم يتم ذلك إلّا بعد نفاذ الأمر، وهو: الهبوط به وبالأرض أرضًا، ومن هنا أصبحت تلك الحياة الخَلقيَّة، التي خُلق فيها الإنسان الأوّل (آدم) جنّة لم تفارق عقله، وظلّ يأملها؛ حتى جاءت الاستجابة حافظة لأمله في العودة إليها ارتقاء.

ولذا؛ فبعد أن كان آدم قد خُلق على الارتقاء خلقًا، أصبح الارتقاء بالنّسبة إليه مجرّد أملٍ. ومع ذلك فالأمل لا يتحقّق إلّا عملًا فمن عمل من أجله بلغ مأموله، ومن لم يعمل فلا ارتقاء.

أمَّا بالنّسبة إلى النّشوء؛ فهو نتاج خلق الشيء من الشيء ارتقاء، كما هو خلق الكون، ثمّ خلق الأرض فيه وجودًا، ثمّ خلق الأزواج منها، كما هو شأن آدم وزوجه، اللذين خُلقا من تراب الأرض جنّة عندما كانت الأرض مرتقة في السّماء.

ولذلك كان الخَلق أوّلا، ثمّ جاء النّشوء مترتّبًا عليه، ومن بعده جاء خلق الأزواج من طين، ثمّ جاء خلق التزاوج من نطفة؛ فكان التكاثر على التسيير فيما لا شأن للإنسان به، وكان التخيير وفقًا للإرادة، والرّغبة التي تمتدّ بين شهوة عاطفيَّة، وخُلقٍ وحُسن تدبّر وضبط ضمير.

فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، خُلق على الارتقاء والأرض مرتقة في السّماء جنّة، ولكن بعلّة الشّهوة اختار أن يسلك سلوك المنحدرين دونيَّة؛ فأصبح النّعت سُفليّة يلاحقه منذ تلك السّاعة التي انحدر فيها؛ إذ لا منقذ له بعلل الاختيار انحدارًا.

ومع أنَّ الأمل بالنّسبة إلى بني آدم يرتبط بالمستقبل، فإنَّه بالنّسبة إلى آدم يرتبط بذلك الماضي الذي كانت فيه الأرض والسّماوات رتقًا؛ ولهذا فالأمل بالنّسبة إلى آدم هو العودة إلى تلك الجنَّة التي فقدت في لحظة غفلة.

ومن هنا؛ فالأمل مع أنَّه من حيث المفهوم واحد، فإنَّه من حيث الدّلالة ليس كذلك؛ ولذا وجب التفكير في الزّمن وضبطه بين ماضٍ لن يعود، وماضٍ يأمله آدم وبنوه الذين يعتقدون أنَّ الجنّة حقيقة على قيد الوجود؛ فتلك الجنّة التي خُلق فيها آدم وزوجه قبل أن تُفتق الأرض من السّماوات، ظلّت هناك في علوٍّ، أمَّا الأمل فظل منقطعًا على الأرض التي أهبط بها ومن عليها من المختلفين والمتخالفين دنيا.

ولأنَّ قواعد النظريَّة: (خلق ـ نشوء ـ ارتقاء) فهي ذات علاقة بأضلاع ثلاثة: (المستحيل ـ الإعجاز ـ الممكن)؛ ولهذا فحيثما كان الخلق كان المستحيل، وحيثما كان النّشوء كان الإعجاز؛ وحيثما يكون الارتقاء يكون الممكن.

ومع أنَّ الممكن ليس بمستحيلٍ، ففيه من الصّعب ما فيه، وعلى الرَّغم من ذلك يتحقّق على أيدي البعض ارتقاء، ويتحقّق على أيدي البعض الآخر دونيَّة وسُفليّة؛ ولهذا فالممكن فيه من الموجب وفيه من السالب ما يساويه، وفيه من المتوقَّع وفيه من غير المتوقَّع ما يساويه.

ومع أنَّ الممكن بين متوقَّع وغير متوقَّع، فليس كلّ شيء ممكنًا؛ فهناك المستحيل الذي لا يخرقه إلّا معجز، وهناك المعجز الذي لا يخرقه إلّا ممكن، أي: إنَّ المستحيل لا يتحقّق إلّا مستحيلًا كما هو حال خلق الأكوان، وفتق الأرض منها، وهبوطها والأزواج على ظهرها إلى الحياة الدّنيا.

ولذلك؛ فالخَلق صُنع الخالق، ولا إمكانيَّة للتمكّن منه فعلًا أو عملًا، أمَّا النّشوء فهو المعجز الذي يخلق من الشيء أشياء، كما هو حال الأرض وخلق كثير من الأزواج منها، ثمّ النّشوء التزاوجي ومعجزة الخلق من النّطفة، ثمّ الإظهار على علم الغيب، وهو المعجز الذي أصبح في دائرة الممكن نبأ ورسالات بين أيدي من اصطفاهم الخالق أنبياءً ورسُلًا عليهم الصّلاةُ والسّلامُ.

ومن هنا، أصبح علم الغيب في دائرة الممكن بين أيدي النَّاس معجزة تبشّر بما يجب، وتنهى عمّا لا يجب، وترشد للحقّ، وتحرّض عليه.

فكان الارتقاء تطوّرًا من الجهل إلى العلم، ومن محاكاة الطّبيعة وحياة الفطرة والأساطير والخرافة، وحياة المحاكاة تقليدًا بلا حُجّة عن غير بيّنة، إلى حياة المعرفة الواعية، والفكر المستنير الذي تلاقح بالعلم المعجز من عند الله على أيدي الأنبياء والرّسُل عليهم الصّلاةُ والسّلامُ.

فأنتج عصرًا جديدًا، فيه تُولّد الفكرة من الفكرة، وفيه أصبحت المحاجّة بين النَّاس المختلفين والمتخالفين بيّنةً ودليلًا، وفيه العبر والمواعظ تؤخذ من التّاريخ، وفيه الحقوق بين النَّاس تمارس، والواجبات تؤدّى، والمسؤوليات تُحمل عن إرادة؛ ومع ذلك فالصّدام والخصام والاقتتال بين النَّاس ظل في دائرة الممكن بين متوقَّع وغير متوقَّع.

ولهذا فالحياة البشريَّة لم تؤسّس على الاتفاق، بل تأسّست على الاختلاف، وسيظل النَّاس على الاختلاف إلى النّهاية، إلّا من رحم ربّك: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاس أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ

رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ}[2] ومن ثمّ؛ فلا اتفاق بين النَّاس، بل الاتفاق لم يبق بينهم إلّا أملًا، ولا يسعى إليه إلّا الواعون الذين لا تأخذهم الغفلة كما أخذت أبيهم (آدم) عليه السّلام في لحظة الإغواء والشهوة، عندما عصى ربّه، وأكل من تلك الشّجرة المنهي عنها.

ولذلك وجب التذكّر؛ حتى لا تتكرر الأخطاء، ووجب التدبّر دون غفلة عن العبر وما يوعظ، ووجب التفكّر فيما يمكّن من معرفة الكيفيَّة التي تمكّن من معرفة المستحيل مستحيلًا، ومعرفة المعجز معجزًا، ومعرفة الممكن ممكنًا.

ولذا؛ لا ينبغي أن يكون التفكّر منزويًا عن الماضي والحاضر، بل هو مرتبط بهما ويمثلان له قاعدة تأسيس لكلّ الافتراضات التي من شأنها أن تكون مسهمة وفاعلة في صناعة المستقبل المأمول.

ومن ثمَّ، يعدُّ التوقّف أو الانكفاء سِمة تشير إلى وجود خلخلة وبعثرة حقيقية في التفكير؛ ممّا يخلق ارتباكًا وفوضى معرفيَّة لا تكون نتائجهما محمودة؛ فالتفكّر ارتقاء لا يكون إلّا واقعًا ضمن دوائر متعدّدة تكون حاضنة له؛ فتمنحه كلّ ما من شأنه أن يحقّقه.

والتفكّر ارتقاء هو الذي يسير بالفكر الإنساني نحو إيجاد بدائل تكمن فيها معطيات النّهوض الذي يمنح النَّاس حياة أفضل، لكن هذا الأمر لا يتحقّق للجميع؛ لكونه يرتبط بالخوف؛ فالمخاوف بسمتها الإيجابيَّة المفقودة يكون الرّكون إليها متفاوتًا، وهذا ناتج عن الإدراك غير

[2] هود: 118، 119.

الواعي بالحقيقة الموجودة؛ فالخوف لم يكن سلبيًّا على مدار الوجود الإنساني، بل كان حافزًا مهمًّا في المعالجة والوقاية ودرء المخاطر في أوقات مختلفة؛ فهو يشير دائمًا إلى وجود خروقات طبيعيَّة وغير طبيعيَّة، تخرج عن نطاق المتعارف أو الطبيعي الذي يجب أن يكون؛ فهو بذلك منبّه من الدّرجة التي يكون استشعاره باعثًا على إيجاد كلّ ما من شأنه أن يدفع بالمتغيرات الحاصلة التي ظهرت منها المخاطر نحو حدود جديدة يكمن فيها الدرء المنشود، وهذا الحال حين يكون تحقّقه مستمرًا، يمنح الإنسان وعيًا، ويمكِّنه من الارتقاء إلى ما يجب.

النُّشوءُ

إنَّ عمليَّة إيجاد الشيء من الشيء تعدّ نشوءًا، حتّى وإن كان الشيء متناهيًا في صغره لا شيئًا يوصف.

فإذا سلمنا أنَّ الانفجار العظيم من تلك الذّرة فلا بدّ أن نسلّم بخلق الذّرة، ونشوء الانفجار منها، وإذا سلّمنا بخلق اللاشيء فلا بدّ أن نسلّم بنشوء الشيء منه، وإذا سلّمنا بخلق الأرض فلا بدّ أن نسلّم بنشوئنا منها: {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ}[3].

فالنّشوء: لم يكن خَلق البذرة، ولا حتّى زرعها، بل ضرب جذورها في الأرض ونموّها؛ لتكون وجودًا مشاهدًا بداية ونهاية، ونشوء النبتة يمرّ بمراحل نموٍّ؛ من بذرة تُبذر، إلى بذرة تُجنى: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ}[4].

أمَّا كيف وُجدت البذرة الأولى فلا أحد يعلم، ولا أحد يدّعي إيجادها، بل نبتت من الأرض مثلما نبت الإنسان منها، غير أنَّ النبتة جذورها ضاربة في الأرض، أمَّا الإنسان فقدميه ثابتة على ظهرها وفقًا لقانون الجاذبيَّة.

فالبذرة لا أحد يظنّ أنَّها الخالقة لنفسها كما ظنّ البعض بخلق الكون نفسه من لا شيء، ولكن من يسلّم أنَّ البذرة لم تَخلق نفسها؛

---

[3] هود: 61.

[4] الأنبياء: 104.

فعليه بتصحيح تلك المعلومة الخاطئة التي كُتبت عن خلق الكون من غير خالق بمعلومة صائبة تؤكّد أنَّ: (وراء كلّ مخلوق خالق).

فالنّشوء الخلقي نشوء تكاثر، وهو خلق الشيء من الشيء؛ فالخلق البشري الذي نشأ من آدم وزوجه، أصبح كمًّا بشريًّا هائلًا يزيد تعداده عن السبعة مليارات من البشر، أمَّا تضاعف البذرة النباتيَّة؛ فلا يحصى بيسرٍ: {كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ}[5].

ولأنَّ النّشوء تكاثر فالإنسان الأوّل (الزّوجان) أصبح بعد نشوئه كمّا هائلًا: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا}[6]. أي: ألا يتذكّر الإنسان أنَّه قبل أن يُخلق كان لا شيئًا، ثمَّ خُلق فأصبح شيئًا من زوجين، ثمّ تزاوج؛ فتكاثر؟ ألا يكفي هذا دليلًا على وجود خالق لكلّ شيء؟

وعليه: إنَّ النّشوء مؤسّس على خلق الحياة، ثمّ نشوء الأحياء، أي: لو لم تُخلق الحياة ما خُلق الأحياء؛ ولذلك فكلّ من تُكتب له الحياة، يُخلق على الهيئة التي تميّزه جنسًا ونوعًا، ومن ثمّ ينشأ كلّ مخلوقٍ وفقًا لسلالته التي لا يمكنه الخروج عنها، فآدم وزوجه كونهما المخلوقان من تراب فسلالتهما من طين، أمَّا بنيهم فسلالتهم من نطفة: {ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِّنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَاءٍ مَّهِينٍ}[7]؛ ولذلك فمن أين جاءت الصّلة بالقرود،

---

[5] البقرة: 261.

[6] الإنسان: 1.

[7] السجدة: 8.

وإنَّ آدم وزوجه وبنيهم: (بشرًا سويًّا)، فلا إمكانيَّة لعلاقة سلاليَّة بين البشر والقرود.

فالنّشوء لا يكون إلّا من شيءٍ، فلو لم تكن الأرض ما كان نشوؤنا منها، ولو لم يكن اللاشيء ما كانت الأرض شيئًا منه، ولو لم يكن الانفجار العظيم ما كان اللاشيء شيئًا، ولو لم تكن تلك الذّرة، ما كان ذلك الانفجار العظيم، ولو لم يكن الخالق ما خُلق شيء: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[8].

ومع أنَّ الله خلق كلّ شيء وهو الخلّاق لما يشاء، متى ما يشاء، كيفما يشاء، وأينما يشاء، فإنَّ البشر لا يعلمون كلّ ما خُلق؛ فهناك ما يعلمونه خبرًا، وهناك ما يأخذونه أمرًا ونهيًا، وهناك ما يدركونه عقلًا، وهناك ما يرونه مشاهدة؛ فالبشر كما يسلّمون يقينًا بما يعلمونه فهم يسلّمون يقينًا بما يجهلونه؛ فعلى سبيل المثال: المؤمنون يعلمون بالسّاعة، ولكنَّهم يجهلون ساعتها، ويعلمون بالنّعيم ويجهلون نعمه، ويعلمون أنَّ السّماوات والأرض كانتا رتقًا، ويجهلون كيفية فتقها.

ومع أنَّهم لم يكونوا شهودًا لحدوث الانفتاق العظيم، فإنَّهم واثقون من حدوثه: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ}[9]، أي: إنَّه الحقّ في ذاته؛ حيث لا شكوك: {كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ}[10]، إنَّه العلم البيّن الذي أبلغ

---

[8] المائدة: 17.

[9] الواقعة: 95.

[10] التكاثر: 5.

عنه ولم يتحقّق بعد، وهو سيتحقّق لا محالة: {ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ}[11]؛ إذ لا شكّ أنَّ المستقبل آتٍ وسترون بأمهات عيونكم كلّ ما أعلمتم به قبل أن تروه؛ وهكذا ستعلمون الحقائق، سواء أكانت معلومة، أم مجهولة.

ولأنَّ الخالق خلق الشّيء واللاشيء؛ فخلق السّماوات والأرض أشياء، وخلق ما بينها اللاشيء: (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا)؛ فما بينهما: هو ذلك الفراغ المملوء أشياء متناهية في الصّغر، وبتناهي صغرها توصف بلاشيء.

ومع أنَّ الخلق والنّشوء من مشيئة الخالق، فإنَّ لكن الخلق سابق على النّشوء؛ إذ لا شيء قبله، أمَّا النّشوء؛ فلا يكون إلّا من شيء مخلوقٍ، فينشأ منه خلق آخر، مثل خلق الإنسان من الأرض، وكأنَّه لم يكن منها؛ وهكذا حال الأزواج المخلوقة إنشاء: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}[12].

ومع أنَّ النّشوء مترتّب وجودًا على ما خلق، فإنَّه لا يكون إلّا وفقًا للمشيئة، التي هي دائما سابقة على الشيء، أي: لا شيء ينشأ ويُخلق إلّا من مشيئة الخالق.

ومشيئة المشيء إرادة خَلقيَّة، خَلقت تلك الذّرة، وفجّرتها خلقًا آخر: {وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[13].

[11] التكاثر: 7.
[12] يس: 36.
[13] البقرة: 117.

ولذلك فَخَلق الشيء من الشيء وجَعلهِ على الهيئة والصّفة يعدّ نشوءًا من مشيئة الخالق.

والنّشوء تكوين بنائي يُخلق على الهيئة والصّورة بغاية وظيفيَّة؛ فالأرض التي خُلقت بناءً مكوّرًا، هيِّئت لوظيفة الإنبات والتكاثر والنّشوء والارتقاء: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ}[14].

فالإنبات في الأرض إضافة خلائق، ونشوء حياة، ولفت انتباه إلى ما يشبع الحاجات المتنوّعة والمتطوّرة، بغاية بقاء الحياة إلى النّهاية دون حاجة.

فالنّشوء لا يكون إلّا من شيء؛ أمَّا الخَلق فليس بالضرورة، أي: إنَّ الخلق الأوّل لم يسبقه خلق (خلق من لا وجود)، أمَّا الخلق المترتّب عليه فهو النّشوء (نشوء الشيء من الشيء)؛ ولذلك النّشوء يتعدّد من الخلق الواحد أجناسًا وأنواعًا؛ فذلك الكون المرتق خلقًا، أصبح أكوانًا منشأة انفتاقًا، وهكذا الأرض التي خُلقت خلقًا مرتقًا؛ فقد كان النّشوء منها متنوّعًا ومتعدّدًا (زوجين) من كلّ شيء.

وبما إنَّ المخلوق قبل أن يُخلق لم يكن شيئًا (لا وجودًا) إذن: فمن الذي جعله شيئًا؟ وهل يمكن الحديث عن شيء لو لم يكن موجودًا؟ وبما إنَّه موجود، إذن: فمن الذي جعله شيئًا؟ أي: لو لم يكن الشيء موجودًا فهل يمكن أن يقال عنه: قد خَلق نفسه من لا شيء؟ ولماذا لا يرتقي التفكير العقلي إلى معرفة من خَلقهُ شيئًا (وجودًا)، ولماذا خلقه شيئًا؟

---

[14] الشعراء: 7.

بمعنى: لماذا لا يرتقي التفكير من المخلوق المشاهد إلى معرفة الخالق الذي لا يشاهد؟

ولذلك؛ فالعقل المتأمّل في الوجود الخلقي يدرك أنَّ وراء كلّ شيء مشيئًا له؛ فلو لم يشئه ما كان شيئًا، وبما أنَّه أصبح شيئًا؛ فهو لم يكن إلّا وفق مشيئة، وهذه تستوجب مقدرة خلقيَّة، وخالق يهيئ المخلوق للخلق قبل أن يخلقه؛ ومن ثمّ فلا شيء إلّا من مشيء: {إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شيئًا}[15].

ولأنَّ خلق الشيءِ من الشيء يعدّ نشوءًا، إذن: فلا نشوء إلّا والحياة تملؤه؛ فالأرض لو لم تكن على الحياة، ما كان ترابها صالحًا لخلق الإنسان، وإنباته مثل النبات نباتًا. إنَّه النّبات الذي من بعده لا تخلق الكائنات من الكائنات إلّا تزاوجًا. أمَّا نشوء الأكوان؛ فلم يكن إلّا انفتاقًا.

الانفتاق الكوني العظيم:

الانفتاق العظيم نشوء طرأ على الوجود الكوني الملتحم سماوات وأرض، والانفتاق لم يكن علّة خلق الكون، بل سبب تعدّده، فلو لم يكن الرّتق (الالتصاق) ما كان الانفتاق العظيم؛ ولهذا فالوجود الكوني سابق على نشوء الأكوان؛ فالكون الذي كان مرتقًا (ملتحمًا) في وحدة وجود،

[15] الأنعام: 30.

فُتق انفجارًا عظيمًا؛ فانفصل وتمدّد سماوات وأراضين؛ حتى أصبح أكوانًا: {أنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[16].

ولأنَّ أساس الخلق وجود أوّل؛ فالنّشوء مترتّب عليه خلقًا، وهنا يكمن الخلاف بين من يرى تلك الذّرة وقد انفجرت كونًا بلا خالق، ومن يرى وجود كون مرتق (ملتحم)، وقد انفتق انفجارًا عظيمًا؛ إذ استقل كلّ كون بذاته، بدفعٍ شديد من ضغط الانفتاق العظيم؛ فأصبح كلّ كون على بعد شاسع عن غيره في اتجاه العلو سماوات، وفي اتجاه الدّنوِّ أراضين.

أكوان وقد فُتقت فراغًا تملؤه الطّاقة والمادّة حياة مثل ما تملأ معظم كوننا الدّنيوي، الذي أصبح بانفتاقه محاطًا بفراغ عظيم كغيره من الأكوان الأخرى، والفراغ كما يشكّل الحيّز الأكبر في كوننا يشكّل حاضنة لكلّ كون؛ إذ لا احتكاك، ولا تماس، ولا اصطدام، والحركة والتمدّد لا عوائق.

وكما أنَّ تعدّد الأكوان معلوم قرآنًا (سماوات وأراضين)؛ فقد أصبح معلومًا لدى كثير من علماء الفيزياء، ومع أنّنا نعلم أنَّ الأكوان هي سماوات شداد، غير أنَّنا نجهل ما هي عليه إذا ما استثنينا كوننا الدّنيوي الذي لا نعلم منه إلّا شيئًا قليلًا: {وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا}[17]، أي: بُنيت فوق الأرض الدّنيا سبع سماوات مُحكمات؛

[16] الأنبياء: 30.

[17] النبأ: 12.

ولذلك فالبناء الذي حدث فوق الكون الدّنيوي هو بفعل الانفتاق العظيم الذي زلزل الكون المرتق وجودًا؛ فجعله أكوانًا.

ولأنَّ السّماوات السّبع تعلو الأرض التي نعيش عليها حياتنا الدّنيا، فهي أكوان طباق، أوّلها كوننا الدّنيوي، وفوقه ستّة أكوانٍ؛ ممّا جعل أرضنا الدّنيا وسماءها كونًا منفصلًا (مفتقًا) عن الأكوان الستة التي تعلوه.

فقوله: (وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا) يدلّ على الأرض الدّنيا وما فوقها من سماوات، ممّا يجعل الكون الأوّل الذي نحن جزء فيه هو: (السّماء والأرض معًا) وإذا أردنا أن نعد السّماوات السّبع؛ فهي لا تعد إلّا أكوانًا (أرض وسماء)، فالكون الأوّل (أرض دنيا، وسماء دنيا)، وفوقهما الكون الثاني: (أرض وسماء)، ثمّ تأتي الأرض والسّماء الثالثة: (كون ثالث)، وهكذا تتعدّد الأكوان من الكون الأوّل إلى الكون السّابع سماوات وأراضين: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}[18].

ولذا؛ فعندما يوجّه القول لأهل الأرض تذكر السّماوات السّبع، ولكن عندما يوجّه القول لأهل الكون الدّنيوي: (السّماء والأرض الدّنيا)، تصبح السّماوات من فوقهم ستّ سماوات (أكوان): {وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ

[18] الطلاق: 12.

سَبْعَ طَرَائِقَ}[19]. والسّبعة طرائق هي (السّبع الشداد) أي: السّماوات السّبع؛ ومن ثمّ ينبغي أن يؤخذ المعني مفهومًا، وليس لغةً.

ومن هنا؛ فقوله: (خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ) الخطاب موجّه لأهل الأرض الدّنيا، الذين لا فواصل بينهم وبين السّماء الدّنيا، التي تفصلهم عن الكون الثّاني: (أرض وسماء)، والذي هو الآخر ينفصل عن الكون الثّالث أرضا وسماء، وهكذا هي الطرائق سبعة أكوان.

والأكوان السّبعة بأسباب الانفتاق العظيم نشأت مرتّبة طَبَقًا فوق طبق، من السّماء الدّنيا إلى السّماء السّابعة، ولا اختلاف في طوابقها المملوءة فراغًا واسعًا طاقة وحيويّة: {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}[20]؛ فالذي خلق سبع سماوات (أكوان) خلقها من لا شيء؛ إذ لا شيء يكون إلّا مخلوقًا.

وعليه:

فالسّماوات الطّباق: (أكوان) كانت مُرتقة (مُطبِقة) بعضها على بعض، ولا فواصل فراغية بينها، ومع أنّها مُرتقة، فإنّها تعدّ وجودًا هائلًا؛ فالكون المرتق (الملتحم) كما يتمدّد شدّة حرارة، وشدّة برودة، يتمدّد بينهما اعتدالًا مناسبًا للحياة؛ فخلقت الأزواج من تلك البيئة المعتدلة، وهي التي أصبحت أرضًا دنيا بعد هبوطها وهبوط آدم وزوجه خليفة فيها: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}[21]، أي: بعد

---

[19] المؤمنون: 17.

[20] الملك: 3.

[21] البقرة: 30.

الانفتاق العظيم هبطت الأرض، وهبط على ظهرها الخلق الأوّل: (أجناسًا وأنواعًا)، وفي المقابل ارتفعت السّماء الدّنيا، ومن فوقها ارتفعت بقية السّماوات السّبع الطّباق؛ فكانت أكوانًا محاطة بالفراغ العظيم الذي هيّأ الحركة، ومهّد سبل التمدّد الكوني بين نهاية وما لا نهاية: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَأنَّا لَمُوسِعُونَ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[22].

ومع أنَّ علماء الفيزياء يرون خَلق الكون من انفجار تلك الذّرة التي وصفوها بتناهي صغرها، فإنَّه لا أحد منهم ولا من غيرهم شاهد تلك الذّرة المشار إليها بالانفجار قبل أن تنفجر؛ فهم فقط اكتشفوا أثر الانفجار، ولكن كيف؟ وأين؟ ومتى؟ لا أحد يعرف.

ولأنَّه لا إجابة، إذن: في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع كلّ شيء ممكن.

ولهذا فنحن نرى: انفجار الأكوان (سماوات وأراضين) حدث من الكون المفتق انفجارًا؛ فكان التمدّد متسارعًا من أجل الوجود بداية ونهاية.

وحتى لا يأخذ أحد عنوان الانفجار العظيم تحت أيّ علّة، ليسوّقه وكأنَّ الشكّ لا يلاحقه؛ فليقارن بين وجود ما وُصف بالذّرة المتناهية في الصّغر، وهي لم تُر من أحد على الإطلاق، ووجود كون ملتحم أخبر عن وجوده قرآنًا، ثمّ انفتق انفجارًا؛ فإيّهما أقرب للعقل: شيء لم يشاهد

[22] الذاريات: 47 . 49.

ويقال عنه: قد انفجر، أم شيء أخبر عن وجوده، ثمّ انفتق حقيقة؟ {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[23].

ولأنَّ قاعدة المنطق العلمي تقول:

وراء كلّ مفعول فاعل

والانفجار العظيم مفعول

إذن: وراء الانفجار العظيم فاعل

ولأنَّ وراء الانفجار العظيم فاعلًا؛ فكيف للكون بخلق نفسه من لا شيء، ومن وراء انفجاره فاعل؟ ثمّ كيف يصدّق قول من يصف تلك الذّرة التي لم يرها، ولا يصدّق قول من أوجد الكون مرتقا، ثمّ فتقه يتمدّد في تسارعه بين مشاهدة وملاحظة قابلة للتقصّي العلمي الدّقيق؟

ومع أنَّ علماء الفيزياء والفلك يبذلون الجهد من أجل معرفة ما أطلق عليه: (الانفجار العظيم)؛ فإنَّهم حتى الآن يجهلون معظم حقيقته، فالانفجار لا شكّ أنَّه عظيم هائل، ولكن انفجار ماذا؟ فهل هو انفجار ما تمَّ وصفه بتلك الذّرة، أم إنَّه انفجار شيء آخر؟ وكيف يُسلّم بأنَّه انفجار ذرة، ولم يقدّم الدّليل على وجود الذّرة؟ وهل كان للذّرة مكان وجود قبل انفجارها حتى توصف بأنَّها ذرة؟ أم إنَّها ذرة في غير مكان ولا زمان؟ وإذا كان التحدث عن الذّرة هو تحدث عن وجود؛ فهل يكون

[23] الأنبياء: 30.

الوجود في غير مكان وزمان؟ وهل يمكن أن يكون الانفجار لو لم يكن ذلك المنفجر سابقًا على انفجاره؟

وبما أنَّ الانفجار الكوني حدث لاحقًا على وجود الذّرة المتناهية في الدّقة، فهل يمكن أن يتحقّق الانفجار لو لم يكن المكان والزّمان سابقين عليه ومحتويين له وجودًا؟

ولأنَّ البحاث لم يقفوا على لحظة الانفجار العظيم، ولا على الزّمن الذي كانت فيه الذّرة قبل انفجارها إذن: كيف لهم بوصف المنفجر بالذّرة وهم لا يعلمون حقيقة وجودها؟

ولأنَّه لا يقين (لا حُجّة)؛ فلِمَ لا يلتفتون إلى رتق السّماوات والأرض وانفتاقها أكوانًا؟ فلو التفتوا بحثًا لوجدوا أثرًا شاهدًا، وبخاصّة أنَّهم متيقّنون من أنَّه لا إمكانيَّة للوقوف عند لحظة الانفجار العظيم، واللحظة التي تسبقه.

وعليه:

ألا يكون من الأفضل أن ينطلق العلماء الفيزيائيون في سعيهم البحثي من شيء ذُكر تفصيلًا عن الكون الذي يأملون معرفته، أم إنَّه من الأفضل أنْ يتجاهلوه، ويتمسّكوا بأحكام لم يتّفق عليها حتّى علماء الفيزياء أنفسهم؟

ثمّ، ألا يكون من الأفضل أن يسعى علماء الفيزياء والفلك بحثا علميًّا في شأن الكون من شيء مخلوق، أم من الأفضل أن ينطلقوا من شيء غائب بفعل الانفجار الذي لا يسمح بالتجاوز إلى ما قبله؟

أي: إذا تمسّك علماء الفلك والفيزياء بتلك الذّرة المفترضة؛ فكيف لهم بها ولا إمكانيَّة لبلوغها بأسباب الانفجار الذي يحول بين جهود الباحثين وما يُظنّ أنَّها النقطة أو الذّرة المتناهية في الصّغر؟

ومن ثمّ؛ فكيف يسلّم بعض من علماء الفيزياء أنَّ الكون خُلق من لا شيء، ولا خالق له، ولا يسلّمون بمن قال: أنا الخالق، الذي خلق كلّ شيء؟ أي: كيف ينسبون فعل الخلق لمن لم يقل عن نفسه أنا خالق، ولا يقبلون نسبه لمن قال: أنا الخالق؟ فالخالق لم يُخفِ نفسه حتى يدّعي البعض بما ادّعى به، أو أن يَنسُب شيئًا إلى ما لا ينتسب إليه.

ولأنَّ القاعدة العلميَّة تقول:

كلّ شيء مخلوق من ورائه خالق.

والانفجار شيء.

إذن: الانفجار مخلوق ومن ورائه خالق.

أمَّا الذين يعتقدون أنَّ الكون قد خُلق من غير خالق، فهم لا يجيبون عن السؤال: كيف انفجر الكون؟

ولذلك فهم يتحدّثون عن خلقه من لا شيء وبغير خالق، وبالتالي سيظل السؤال يلاحقهم، كيف خُلق الكون من غير خالق؟ وكيف انفجر بلا أمر لانفجاره؟ وأين انفجر حتى أصبح كونًا عظيمًا من تلك الذّرة المنفجرة؟ وكيف لذلك المتناه في الصّغر أن يلد كونًا متناهيًا في الكبر؟

أمَّا القول بانفتاق الكون ورتقه أكوانًا؛ فهو يعتمد على وجود المخلوق بفعل الخالق، الذي لو لم يكن ما كان الكون، ولا انفتقت منه أكوانًا.

انفتاق الأرض وهبوط آدم:

بعد أن حدث الانفتاق العظيم هبطت الأرض الدّنيا بالقوَّة الفراغيَّة حتى استقرّت اعتدالًا جاذبيًّا في فلكها المتوازن، وصعدت السّماء بذات القوَّة المنفجرة تتمدّد إلى النّهاية؛ فشكّلتا كونًا دنيويًّا تملؤه الحيويّة والحياة: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}[24].

ولأنَّ أمر فتق السّماوات والأراضين بيد الخالق؛ وأنَّ فتقهما جاء قبل هبوط الأرض إلى الدّنيا؛ إذن: فلا أحد يعلم الكيفيَّة التي بها فتقت السّماوات والأرض، ولا الزّمن الذي فيه فتقت، ولا الصّفة التي جاء عليها الانفتاق العظيم، فلا أحد يعلم بذلك إلّا الذي أمر بفتقها سماوات وأراضين، ولا أحد يعرف إلّا الأزواج التي هبطت عليها.

ولأنَّ الزّوجين: (آدم وزوجه) المستخلفين في الأرض لم يتركا لنا شيئًا من هذا؛ إذن: فلا حُجّة بين أيدينا، وكذلك لم نعثر حتى الآن على هما لنقول: هذا أثر الأنسان الأوّل، الذي قالوا عنه: قد تطوّر بعد أن كان شبيه قردٍ. ولكن الإجابة العلميَّة وفقًا للمعلومة المتوفّرة بين أيدينا حُجّة هي: (أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا).

[24] الأنبياء: 30.

ولذا؛ فُتقت السّماوات والأراضين؛ فكانت أكوانًا، وفي كوننا علماء الفلك والفيزياء يبحثون ويتقصّون، ومع ذلك لم يعلموا إلّا قليلًا، ومن ثمّ؛ فكيف لنا بمعرفة أسرار الأكوان الأخرى، ونحن لم نعلم من أسرار كوننا إلّا قليلا! {وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[25].

ولأنَّها أكوان مستقلّة بذواتها؛ فهي أكوان مخلوقة على الخصوصيَّة والنّوعيَّة التي تُميّز كلّ كونٍ عن غيره، وهذه من أسرار الخالق الذي يعلم ما لا نعلم: {وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ}[26].

ومع أنَّ السّماوات والأراضين كانت ملتحمة كونًا لا فواصل بينها، فإنَّ الأرض كانت صالحة لحياة الخلق الأوّل قبل أن تنفتق أرضًا دنيا، وهناك كان نشوء أبينا آدم مثل نشوء النّبات: {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ نباتًا}[27]، وهناك أيضًا تمّ اصطفاؤه نبيًّا للخلق الأوّل: (الملائكة والجنّ والإنس)، وهناك كانت جنّة الحياة الأوّلى؛ حيث تمام النّعمة ورغد العيش، وفي المقابل كانت هناك المعصية: {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}[28]. أي: إنَّ معصية آدم وزوجه لم تكن على الأرض الدّنيا، بل كانت على ذلك الكون المرتق في وحدة وجود عظيم، أي: في جنَّة عرضها كعرض السّماوات والأرض: {وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}[29].

---

[25] الإسراء: 85.
[26] الواقعة: 61.
[27] نوح: 17.
[28] طه: 121.
[29] الحديد: 21.

ومن هذه الآية يمكن استقراء نهاية الأكوان التي فُتقت بعد رتق أن تعود ثانية إلى ما كانت عليه مُرتقة، وهناك ستكون الجنّة التي يأملها المؤمنون: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا أنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}[30].

إذن: فالخالق وعد بعودة الخلق إلى ما كان عليه خلقًا أوَّلًا، وبالتّالي ستطوى الحيّزات الفراغية العظيمة التي فصلت الأكوان، وجعلت منها طرائق سماوية وأرضية؛ وسَتُرتق من جديد وجودًا عظيما (جنّة ونارا) ولكلّ ثمار عمله: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ}[31].

ومع أنَّ الإنسان الأوّل خُلق في أحسن تقويم، وكان في جنّة غير منقوصة، فإنَّه لم يصمد أمام الوسوسة والإغواء؛ فأكل من تلك الشّجرة المنهي عنها؛ فأهبط به وزوجه والجنّ على ظهر الأرض من الحياة العليا إلى الحياة الدّنيا: {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}[32]. فقوله: (اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) المقصود هما: الإنس والجن، اللذان أصبح بينهما العداء جزءًا من الحياة الدّنيا.

ولأنَّ الإنس الأوّل: (آدم وزوجه) يشكّل طرفًا رئيسًا في مخالفة أمر الله، وأنَّ الجنّ طرف رئيس أيضا في المخالفة، فكان حكم الهبوط عليهم بلا استثناء: {قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ

[30] الأنبياء 104.
[31] الأنبياء: 104.
[32] طه: 123.

مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ}[33]؛ فهنا جاء القول موجّه للخطّائين، الذين تمّ تبليغهم بأنَّ الأرض هي نصيبهم في الحياة الدّنيا، وكأنَّ المقصود: خذوا الأرض فهي قد مُنحت لحياتكم، لكم فيها مستقر ومتاع إلى حين، وستظلون عليها ما حييتم، وستموتون عليها، وستحييون منها.

إنَّ القول جاء أمرا حاسما بأنَّ وجود الخطّائين في الكون المرتق (الملتحم) أصبح غير ممكن، والإبعاد عن الجنّة لا مفرّ منه؛ فالجنّة التي لم يقدّر العيش فيها من قِبل من خُلق خلقا كما هي خُلقت فلا بدّ من خروجه منها؛ فكان الخروج هبوطًا للأرض ومن عليها، وكان الدّرس، ولعلّه يكون الموعظة.

ولذلك فُتقت السّماوات والأراضين، وأهبطت الأرض الدّنيا بالحياة الدّنيا، وعلى ظهرها الأزواج التي أنبتت منها وخُلقت عليها، وعلى رأسها الإنس والجنّ؛ ممّا جعل الوسوسة والإغواء بين بني آدم نار فتنة حتى اقتتلا.

والتساؤل: كيف يفكّ اللبس بين مفهوم خلق آدم في الجنّة وخطيئته هناك، وخلقه من تراب الأرض؟

الأرض التي نشأ آدم وزوجه منها كانت في زمن الرّتق مع السّماوات قطعة من الجنّة؛ ولذلك فطينة خلق آدم وزوجه هي من طين الجنّة قبل أن تنفصل الأرض عنها، وتصبح دُنيا (سفلى)، ولكن بعد أن

---

[33] الأعراف: 24، 25.

أهبط بهما وبمن معهما من أزواج، لم تبق الأرض قطعة جنّة؛ ولذا فآدم وزوجه لم يخلقا من الأرض بعد انفتاقها من ذلك الوجود الأوّل (سماوات وأراضين)، بل خُلق من الأرض قبل الانفتاق العظيم: {فَقُلْنَا يَا آدَمُ أَنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى}[34]. ولا شكّ أنَّ البقاء في الجنّة بقاء في النّعيم، أمَّا البقاء في الأرض بعد انفتاقها من السّماوات أصبحت دنيا، ولم تعدّ عليا كما كانت جنّة.

إنَّ الأرض بعد هبوطها والأزواج التي على ظهرها سُلبت من نعيم الجنّة، ولم يترك لها إلّا شيء من الماء الكفيل بحياة الأزواج المتكاثرة في الحياة الدّنيا: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}[35]. أي: إنَّ السّماوات والأرض عندما كانت مُرتقة في وحدة الوجود العظيم كانت قطعة جنّة، ولكن بعد أن فُتقت؛ فلم يفتق معها من نعيم الجنّة إلّا الماء، الذي يحفظ الأحياء على الحياة الدّنيا: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ).

ولأنَّ نشوء الإنس نشوء غير كامل؛ فكانت الخطيئة من الإنسان الأوَّل: (أصل السّلالة البشريّة)؛ ولذلك لو أخذ آدم بأمر النّهي، وبقي ممتنعا عن الأكل من تلك الشّجرة، لكانت حياته مثل خلقه في النّعيم: {فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}[36]، ولكن التساؤل:

[34] طه: 117.
[35] الأنبياء: 30.
[36] طه: 121.

متى بدأت الحياة على الأرض؟

الفيزيائيون يقولون: لقد بدأت الحياة على الأرض بعد أن بردت من حرارة ذلك الانفجار العظيم؛ فتكوّنت بحارها وجبالها وسهولها وغلافها الجوي، حتى أصبحت جاهزة لاستقبال الحياة، وقد نادى بعض العلماء الفيزيائيين وعلى رأسهم العالم الألماني ريختر richter 1870، والعالم هلمهولتز Helmholtz 1894: إلى أنَّ الحياة انتقلت إلى الأرض من كوكب آخر عن طريق بذور نبات، أو حويصلات جراثيم الميكروبات، أو الأطوار ذات البيات، أو السّكون في كائنات أخرى، أو أنَّ أحد النيازك قد حمل كائنات حيَّة لكوكب الأرض[37]، وهناك من يرى أنَّ الأرض مرّت بزمن ارتفاع درجات الحرارة، ثمّ حلول العصر الجليدي، ثمّ أخيرا ظهر الإنسان بعد أن تمت تهيئة ظروف حياته[38].

وهنا، تكمن حقيقة، مفادها: أنَّ دلائل تشير إلى وجود علاقة بين الأرض وكواكب أخرى، وهذا يؤكّد أن الأرض كانت غير مستقلة عن غيرها من خلائق الكون (السّماوات والأرض)، أي: إنَّ الكائنات والنباتات والنيازك السّماوية التي يعتقد أنَّها قد هبطت على الأرض تعدّ مؤشرا ودليلا على أنَّ الأرض والسّماوات كانتا رتقًا.

---

[37]http://st-takla.org/books/helmy-elkommos/biblical-criticism/204.html

[38]Cosmology: The Science of the Universe. Second edition. Edward Harrison. Cambridge University Press, 2000

ولذلك؛ فالأرض لو كانت نتاج الانفجار العظيم ذا الحرارة العالية كما قال عنها علماء الفيزياء والتي لا توصف بأيّة حرارة نعرفها، لكانت الأرض رمادا غير صالح للحياة: (النّار لا تترك إلّا الرّماد)؛ ولكن لأنّها كانت مرتقة في السّماوات، ثمّ فتقت؛ فأهبط بها وبمن على ظهرها إلى الحياة الدّنيا؛ فأصبحت الحياة على الحاجة بعد أن كانت على النّعيم إشباعًا.

ومع أنَّ علماء الفلك والفيزياء يتحدّثون عن الأرض كونها نتاج انفجار تلك الذّرة، وليست نتاج الانفتاق العظيم الذي سبق علمه ما اكتشفه علماء الفلك والفيزياء، فإنَّ الأرض لو كانت على تلك الحرارة الموصوفة شدّة لكانت عدمًا (حيث لا حياة) وهذه لا تكون صفة الأرض التي خلقت منها الأزواج: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}[39].

ومع أنَّ الإنسان الأوّل خُلق من الأرض؛ فإنَّه لم يُخلق من أرضٍ رمادٍ (عدم)، ولا من الأرض الدّنيا، بل خُلق من الأرض العليا التي ترابها وطينها وصلصالها جنّة؛ ولذلك فحياة الإنسان الأوَّل كانت حياة عليا، أمَّا الحياة على الأرض الدّنيا فهي الحياة السفلى.

أي: بمقارنة ذلك النَّعيم مع ما يتوافر على سطح الأرض الدّنيا؛ فلا مقارنة؛ وهنا تكمن سُفلية الحياة الدّنيا، وفي المقابل ترتقي حياة النّعيم وتعلو.

---

[39] يس: 36.

ولذلك في الأرض العليا: (المرتقة مع السّماوات) كان نشوء الحياة فيها من كلّ زوجين اثنين، وقبل الزّوجين كان الملائكة والجنّ من خلائق الجنّة، ولكن نتيجة الإغواء الذي شبّ بين الإنس والجنّ أهبط بهما والأرض؛ إذ أصبحت أرضًا دُنيا بعد أن كانت أرضا عليا، وظلّت الملائكة في السّماوات العليا غير مخالفة لأمر الخالق، وهي لا تتنزّل للأرض إلّا لأمرٍ: {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ}[40]، أي: كلما لزم أمر تنزّلها تُنزل: {يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ}[41].

فالأرض بعد أن أصبحت دُنيا قلّ شأنها عمّا كانت عليه؛ وذلك بفقدانها صفات الجنّة التي لم يعدّ منها شيء، إلّا بعضًا من الماء: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}[42]؛ فالأرض خُلقت وهيأت للحياة العليا، ثمّ فُتقت بما هُيأت به للحياة الدّنيا، فكان الانفتاق العظيم انفتاق أكوان (سماوات وأراضين) وهو النّشوء العظيم، الذي به تمدّد الكون متسارعا في اتساعه، وأنّه لمن الصّعب معرفة أسراره إلّا مؤشرات.

وعليه:

فإنَّ أساس الخلق هو: كون مُرتق، ثم كون مُفتق، وفي كلتا الحالتين الخالق واحد؛ فنحن بني آدم لا نعلم إلّا ما أعلمنا به الخالق وحيا موحى، ومع ذلك لم يُظهرنا على ما أعلمنا به إلّا بمقدار؛ ومن ثمّ فكلّما اكتشفنا

---

[40] القدر: 4.

[41] آل عمران: 124.

[42] الأنبياء: 30.

شيئًا تمكنّا من معرفة حقيقة ذلك الشيء، وفي المقابل لم ننتج حقيقة؛ فالحقيقة (وراء كلّ مخلوق خالق)؛ ولذلك فمنتج الحقيقة هو خالقها، أمَّا مكتشفها فهو المتعرّف عليها، وبين هذا وذاك قد يظهر مدّعيها وهو من لم يكن منتجا لها ولا متعرّفا عليها.

خلق الشيء ونشوؤه:

إنَّ التحدّث عن الخلق لا ينفصل عن التحدّث عن الخالق: (وراء كلّ مخلوق خالق)، ولكن التحدّث عن النّشوء تحدّث عن المخلوق وكيفية وجوده وأحواله، وما يطرأ عليه من تغيّرات.

ولأنَّ الخلق صُنع الخالق، فهو السّابق على كلّ شيء؛ حيث لا وجود لشيء إلّا خلقا ونشوءا: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}[43]، وهنا يكمن الإعجاز ولا استثناء.

فالحياة مع أنَّها قيد: (بداية ونهاية)، فإنَّها وسعت الوجود الذي يستوعب كلّ شيء؛ حيث لا استثناء لشيء، والشيء إن لم يعرّف جنسا ونوعا وصفة وحجما وخاصيّة، فلا يعد إلّا نكرة، تحتويه الحياة ولا يحتويها؛ فالحياة خَلق يستوعب الوجود: (كلّ شيء) سوأ أكان الشيء مادّة، أم طاقة، أم روحا، أم معلومة، ولا يكون الشيء شيئًا إلّا في حيّز الوجود، ومع ذلك، ليس بالضّرورة أن يكون الشيء ماثلًا أو خاضعا للملاحظة والمشاهدة؛ فهناك من المعجزات ما لا نعلمه.

[43] الزّمر: 62.

ولهذا؛ فالشيء وجود، وإيجاده مشاهدا لا يجعله في حاجة لمن يثبت وجوده، وهذا الإثبات يتعارض مع مقولة الفيلسوف ديكارت: (أنا أفكر أنا موجود) أي: بما إنَّك موجود؛ فلماذا تشكّ في وجودك؟ وكيف لك أن تفكّر لو لم تكن موجودًا؟ وهل تعتقد أنَّ الشيء الذي لا يفكّر لا يعدّ موجودًا؟

ومن ثمّ؛ فعلينا أن نميّز بين: (الشيء) غير المقيد بكمّ أو هويَّة، ولم يكن خاضعا للمشاهدة، ولا يقتصر وجوده على ما خُلق، وبين (كلّ شيء) وهو المحدّد، الّذي قد خُلق، ويمكن وصفه، والتحدّث عنه، ولتبيان ذلك؛ فأيهما أكثر دلالة، أن تقول: الحمد لله؟ أم تقول: الحمد لله ألف مرّة؟

بالتأكيد قول: (الحمد لله) غير محدّد بكمّ، ولكن قول: (الحمد لله) ألف مرّة: قول مقيّد، وكأنَّ المعنى يحمل في مضمونه لا حمد بعد الألف مرّة. وبالتالي فإيهما أكثر أن تحمد الله بلا حدود، أم أن تحمده ألف مرّة؟ فهكذا يكون الفرق بين الشيء الذي لا يحصى، وكلّ شيء يحصى وإن صعب عدّه وإحصاؤه في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا}[44].

وعليه: فلا شكّ أنَّ كلّ شيء على قيد الحياة هو شاهد على وجوده؛ كونه يشغل حيّزا، حتى وإن كان الحيّز لا يُرى بالعين المجرّدة؛

[44] مريم: 93 . 95.

ولذلك فكلّ شيء يعني: كلّ ما يخُلق ويدرك ويشغل حيّزًا حتى وإن كان حيّزًا ذهنيًّا ولتكن: (فكرة).

ولذلك فكلّ شيء هو على قيد الحياة وجودًا (خلقًا ونشوءًا)، فنحن بني الإنسان الأوّل الذي خُلق في أحسن تقويم، لو لم نكن على قيد الحياة وجودًا ما تحدثنا عن الحياة التي نحن قيد وجودها.

ولذلك فالقاعدة المنطقيَّة تقول:

كلّ شيء على قيد الحياة.

الكون شيء.

إذن: الكون على قيد الحياة.

ومع أنَّ الكون شيء، فإنَّه يحتوي في أحشائه أشياء متناهية في الصّغر وأشياء أخرى متناهية في الكبر: (خلقًا ونشوءًا)، وهي: التي عُرّفت فيزيائيًّا بـ(الشيء واللاشيء)؛ ولكن بما أنَّ الكون على قيد الحياة، إذن: فمن ورائه محيي (خالق) وهنا، يتّضح الخلاف بين من يرى الكون خُلق من لاشيء، ولا خالق له، ومن يراه مخلوقا.

ولأنَّ الكتابة عن كلّ شيء غير ممكنة؛ فلنأخذ مثالا واحدا على شيئين في وقت واحد، وهما (الجنّة والنار)، فالله الخالق خلق الجنّة، والله الخلّاق يخلق وسيخلق ما لا نعلم داخل الزّمان وخارجه؛ فقوله: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[45]؛

[45] البقرة: 82.

تدلّ على أنَّ الله قد خلق، وهو يخلق، وسيخلق؛ فقوله: (أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) تعود على الذين آمنوا وعملوا الصّالحات، وقد دخلوا الجنّة، وكذلك تعود على الذين آمنوا وعملوا الصّالحات وهم في الزّمن الآن أموات في طريقهم إليها، وهي كذلك تدلّ على الذين سيلحقون بهم بما عملوا ويعملون من الأعمال الحسنة.

ولذا؛ فلو قلنا: إنَّ الجنّة مخلوقة، وهي في الوجود الحي، لقال البعض: وكيف تثبت لنا ذلك؟

قال تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}[46].

جاءت هذه الآية بصيغة الفعل المتحقّق (وَنَادَى)، ولم يقل: ينادي أو سينادي، وحدّدت هذه الآية من هم الذين نادوا؟ قال: (وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ)، وهذا يثبت أنَّ الجنَّة والنّار مخلوقتان (متحقّقتان)، ومع أنّنا لم ندرك وجودهما، فإنَّه علم اليقين، وإلّا كيف نعترف بأنَّ السّماوات والأرض كانتا رتقا وفُتقتا؟ وكيف نعترف بأنَّ آدم خُلق من الأرض وهي مرتقة مع السّماوات جنّة، ولا نعترف بخلق الجنّة أصلًا؟

ولأنَّ الجنّة والنَّار هما مكانا الحياة، رحمة أو عذابًا؛ إذن: فهما شيئّان عظيمان؛ ولذلك نادى أصحاب الجنّة أصحاب النّار: (أَنْ قَدْ

---

[46] الأعراف: 44.

وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا)، إنَّه خبر يقيني؛ حيث لا شكوك، فأصحاب الجنّة أحياء فيها يرزقون؛ وقد وجدوا ما وعدهم الله به من نعيم، ولكنَّهم يودّون أن يعرفوا: هلّ وجد أصحاب النّار ما وعدوا به حقّا؟ فأجابهم أصحاب النّار بقولهم: (نَعَمْ)؛ (فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ).

وفي المقابل قال تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ}[47]؛ فقول أصحاب النّار: (أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ)؛ تدلّ على ما يعانيه أصحاب النَّار من ألم وشدّة وعذاب، كما أنَّها تدلّ على: أنَّ أصحاب النّار قد عرفوا أنَّ الماء والنّعيم متوافر عند أهل الجنّة، أي: وهم في جهنّم تيقّنوا أنَّ كلام الله هو الحقّ؛ فما قيل لهم في حياتهم الدّنيا عن النَّار وجدوه حقًّا (عين اليقين)؛ ولأنَّهم وجدوه حقًّا، إذن: فمن دون شكّ أنَّ أصحاب الجنّة قد وجدوا ما وعدهم الله حقّا؛ ولهذا قال أصحاب النّار لأصحاب الجنّة: (أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ)؛ فكانت إجابة أصحاب الجنّة (إنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ).

هذه الآيات نزلت تتحدّث عن واقع، وتستشهد به، ولم تتحدّث عن مثالٍ، أو أمنية من الأمنيات الخاصّة.

---

[47] الأعراف: 50.

ولهذا، فالله قد أعدّ جنّات الخُلد إعجازا: {أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}[48]، فقوله: (أَعَدَّ) تعني: أنَّه خلق، وهيّأ جنّات متنوّعات، مملؤة بما تشتهيه الأنفس؛ ممّا لذّ وطاب.

ولأنَّ الله قد أعدّ الجنّات؛ فهو قد خلقها، ومن ثمّ؛ فالجنّة مخلوقة، حتى لا يظنّ الظانون أنّهم موعودون بشيء لم يخلق بعد.

ولأنَّ الله قد خلق الجنّة قال: {وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا}[49]؛ فكلمة: (وَأُدْخِلَ) تدلّ على الماضي المتحقّق، أمَّا مجمل قوله: (وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فيها)؛ فهي المثبتة للمكان الذي أدخل إليه الذين آمنوا وعملوا الصّالحات، وهو الجنّات المتنوّعة بما فيها من نعيم عظيم[50].

إذن: فلا شكّ أنَّ أصحاب الجنّة يساقون إليها، وأصحاب النَّار يساقون إليها: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا}[51] وفي المقابل سيق المتقون إلى الجنّة زُمرا: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا}[52].

وعليه: فالجنَّة لو لم تكن شيئًا؛ فهل لنا بالتحدث عنها؟ وكذلك النَّار لو لم تكن شيئًا؛ فهل لنا بالتحدث عنها؟

---

[48] التوبة: 89.

[49] إبراهيم: 23.

[50] عقيل حسين عقيل، بسم الله بداية ونهاية، القاهرة، 2015م، ص 213 . 217.

[51] الزمر: 71.

[52] الزمر: 73.

ولأنَّ السّماوات والأرض كانتا رتقا، وأنَّ الإنسان الأوّل خُلق هناك خَلقا زوجيّا، وأنَّ (آدم وزوجه) خُلِقا من الأرض الجنّة وأنشئا فيها وهي مرتقة مع السّماوات، وأنَّ الزّوجين اللذين خُلقا من طينها قد خالفا وأكلا من المنهي عنه، وأنَّ خالقهما قد أخرجهما من الجنّة، ثمّ أهبطا منها والأرض إلى الحياة الدّنيا، إذن: ألا تكون الجنّة بالنّسبة إلى آدم وزوجه عين يقين، وتكون بالنّسبة لنا علم يقين؟ فهل لا زال هناك شكّ أنَّ الجنّة لم تكن مخلوقة على قيد الوجود؟ {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}[53].

أم هل هناك من يظن أنَّ الجنة لم تخُلق ولم يسكنها آدم وزوجه مع الملائكة والجنّ؟ ولم يهبطا منها ومن معهما وما معهما إلى الحياة الدّنيا؟ أم إنَّ وجود الجنّة وما جرى فيها مع الخلائق حقيقة، ولكنَّها قد ألغيت؟ وكيف يُقبل القول بإلغائها والخالق قال: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[54].

وعليه: فالأرض الجنَّة لم تلغ من ذلك الخلق العظيم المرتق، بل فتقت؛ فأصبحت في كون من الأكوان التي فُتقت سماوات وأراضين؟

ولأنَّ الجنّة قد خُلقت مع ذلك الشيء المرتق فهي حقيقة، وشواهدها على الواقع حقيقة، وإلّا هل هناك من يكذّب أنَّ ورق الجنّة

---

[53] البقرة: 35، 36.

[54] الأنبياء: 30.

لم يُخصف على آدم وزوجه بعد أن ارتكبا الخطيئة؟ {وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ}[55]. أم هل هناك من يظن أنَّ قصّة الجنّة وخلق آدم وزوجه لم تحدث حقيقة؟ فإن ظنّ، إذن: فماذا يبقى له ليقول: أنا من سلالة آدم الذي خلقه الله في أحسن تقويم؟ ثمّ، إن لم يسلّم بذلك؛ فما هي الحُجّة التي بين يديه لتؤخذ حُجّة إثبات بعدم خلق الجنّة التي فيها خُلق الملائكة والجنّ والإنس وما لم نعلم إعجازا؟ ولكن إن لم يكن هناك شكّ لدى البعض، إذن: فلا شكّ أنَّ الجنّة شيء مخلوق وخُلق آدم وزوجه فيها ونشآ من ترابها، وأنّهما أهبطا منها، وأنَّ الأرض الدّنيا بلا شكّ كانت مرتقة مع السّماوات، ثمّ فتقت أكوانًا.

أصل النّشوء البشري:

أصل الخلق البشري من خَلقِ الكون؛ فلو لم يكن الكون لتكون الأرض منه، ما خُلق الإنسان من ترابها: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ}[56]؛ فالخلق من تراب على الرّغم من اختلاف المعتقدات والمعارف العلمية؛ فلا أحد يشكّ فيه، وبخاصّة بعد اكتشاف عناصر خلق الإنسان التي هي من مكوّنات الأرض ترابًا، والتي كان أكثرها نسبة الأكسجين 65%، ثمّ الكربون 18%، ثمّ الهيدروجين 10%، وتوزّعت بقية النّسب تكوينا في جسم الإنسان[57]؛ ولذلك فلم يبق شيء يمكن أن يكون مكوّنا لجسم الإنسان إلّا وهو عنصر في

[55] الأعراف: 22.

[56] الروم: 20.

[57] http://alelmwalmarefa.blogspot.com.eg/2014/04/blog-post_21.html

الأرض، أمَّا أمر الرّوح؛ فهي لم تكن من تراب، ولم تكن من مكوّنات الجسم الإنساني، بل هي المدخلة عليه إدخالا: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[58].

ومع أنَّ أصل النّشوء البشري من تراب، فإنَّ الخلق البشري لم يكن ترابا، بل كان شيئًا على المعرفة الممكّنة من: (التذكّر، والتدبّر، والتفكّر)، ومن هنا؛ فالإنسان يتطوّر معرفة وليس جسدا؛ فالجسد أُنبت من الأرض نباتًا: {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ نباتًا}[59]. فالآية تعود على البشر؛ ولأنَّكم يا بني آدم من ترابها؛ فأنتم نشأتم من الأرض وكأنَّكم نبات من نباتها، وقوله: (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ) أي: أنشأكم من الأرض نشأة؛ ولأنَّ خلق الإنسان من الأرض، قال: (أَنْبَتَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ نباتًا) ولم يقل: (إنباتًا)؛ ذلك لأنَّ (النبات) من الأرض، أمَّا (الإنبات) فمن خارجها؛ ولأنَّكم يا بني آدم من الأرض؛ فكان نشوؤكم منها نباتًا.

ولذلك فهل يمكن لأحدٍ أن يقول: إنَّه لم يكن من تراب الأرض وعناصر تكوينه تشهد عليه ترابا؟ وإذا كان الأثر خير دليل لإثبات براءة أو إدانة صاحبه، إذن: فلا شكّ أنَّ عناصر خلق الإنسان من تراب خير شاهد على نشوئه منها.

---

[58] الإسراء: 85.

[59] نوح: 17.

تطوّر نشوء الإنسان:

تَطوّرَ الوجود من لا شيء يُدرك، إلى شيء مُدرك؛ فكان ما يشير إليه الفيزيائيون بالذّرة أو النّواة الأولى، ثمّ الانفجار العظيم الذي به أصبح الكون وجودًا، والحياة تملؤه شيئًا ولا شيء؛ فتكوّرت النّجوم والكواكب، وكانت الأرض المكان المناسب لحياة الأزواج التي خُلقت منها خلقا: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ}[60].

ولأنَّ الأرض مكان خلق الخلائق؛ فكانت الأجناس والأنواع جمادا ونباتًا وحيوانا وبشرا، وما لا نعلم، خَلقٌ من تراب، ولكن لكلّ طينته التي تميّزه عن غيره، وفقا لمشيئة الخالق: {وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ}[61].

ومع أنَّ خلق الإنسان الأوّل: (آدم) من ترابٍ، فإنّه لم يكن ترابا، بل بشر في أحسن تقويم، هيئة وصورة وعقل: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ أنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ}[62]، أي: إنَّ الإنس الذي خُلق من طين ليس بطينٍ، وهنا يكمن الإعجاز الخلقي؛ فلو كان الإنسان طينًا لكان جدارًا.

ومع أنّنا نتحدّث عن الإنسان الأوّل: (آدم) لكنّنا نشير به إلى الجنس البشري، الذي من البدء كان خلقه على الزّوجيّة (آدم وزوجه)، مثله مثل بقية الخلائق، كلّها خُلقت على الزّوجية الثنائيّة، ولا شيء خُلق على الفرديّة: (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ)؛ ولذلك فيصعب علينا

---

[60] الذاريات: 49.

[61] الحجر: 19.

[62] ص: 71.

الأخذ القاطع بما لم ينزّل قرآنا، وهو: أنَّ حواء من ضلع آدم؛ فكيف لنا بذكر حواء، واسم حواء لم ينزل في القرآن ولا مرّة واحدة؟ بل قال القرآن: (زوجك) ولم يقل: (زوجتك)، ومن هنا؛ فالفرق كبير بين المفهومين؛ فزوجك يشير إلى دلالة التسوية الخلقية من تراب، أمَّا زوجتك؛ فأمرها يعود كما يعود أمر خلقك إلى نطفة: {وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ}[63]، ثمّ أكّد على أنَّها: (زوجك)، ولم ترد كلمة: (زوجتك)، ولا مرّة واحدة في القرآن أيضا: {فَقُلْنَا يَا آدَمُ أَنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ}[64].

إذن: فخلق الإنسان تطوّر من تراب إلى بشرٍ، وكأنَّه لا علاقة بالمشاهدة بين الصّفات الطينيّة، وصفات الإنسان التي خُلق عليها بشرًا سويًّا. ولكن هذا التطوّر خلقي، نشأ الخلق عليه نشوءًا: {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ}[65].

ولأنَّه تعالى خَلق الأزواج كلّها: {وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا}[66]؛ وخَلق الإنسان من بينها في أحسن تقويم، إذن: فقد خَلقَهُ متميّزًا ومتطوّرًا عن بقيَّة الخلائق؛ ليكون على التطوّر إلى النّهاية.

ولأنَّ الإنسان خُلق في أحسن تقويم: (أحسن صُنع، وأحسن قوام، وأحسن صورة)؛ فكيف يقال عنه: إنَّه حيوان متطوّر؛ فالحيوان وإن

---

[63] الأعراف: 19.

[64] طه: 117.

[65] هود: 61.

[66] النبأ: 8.

تطوّر فلن يكون إلّا حيوانًا، وفي المقابل سيبقى الإنسان إنسانًا وإن انحدر.

ومع أنَّ داروين لم يقل: إنَّ أصل الإنسان قرد، فإنَّ كثيرين نسبوا ذلك إليه، فداروين يرى شبها بين القرد والإنسان وكأنَّهما ابني عمومة، ولكن وإن التبس الموضوع عليه أو على البعض فدائمًا المشبه غير المشبّه به، فأنت دائمًا غير أبيك، وأنا دائمًا غير ابني، وحتى التوأم لكلّ بصمته التي تميّزه عن الآخر؛ فما بالك بمن لم يكن من طينتنا ولا نحن كنّا من طينته.

فالقرد لو تطوّر وأصبح إنسانا كما كتب البعض ما لم يكتبه داروين؛ لانعدمت القرود من على وجه الأرض، وإن قبل من يقبل بذلك، فهل يقبل بتطور القرد عند حدّ ما وصفوه به، أم إنَّه ينتظر تطوّرا آخر، مجهول الهويّة والصّفة؟ وكيف للإنسان الذي يعلم بطينة خلقه، وحُسن تقويمه، أن يقبل الانتماء إلى طينة هي أقل شأنا منه؟

إنَّ الخلق في أحسن تقويم، هو خلق تميّز تفوّقي على كلّ المخلوقات، جن وملائكة، وكائنات أخرى، وإلّا هل هناك من ينكر اصطفاء أبينا آدم نبيا للملائكة والجن والإنس؟ {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ أَنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ أَنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[67]، أي: إنَّ الله تعالى قد فضّل آدم على الجميع: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ

[67] البقرة: 30.

كُلَّهَا}[68]، والأسماء كلّها هي الأسرار التي لم يعلمها الملائكة من قبل؛ حيث أسبقية خلقهم على آدم: {قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ}[69]؛ فآدم كونه النّبي أنبأهم بما أنبأه الله به، وهو: (ما يعلمونه من قبل وما لم يعلمونه). {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}[70].

ولأنَّ آدم نبي سجد الملائكة له طاعة لأمر الله: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا)، وإلّا هل هناك من يظن أنَّ الملائكة أفضل من آدم؟ لو كان الملائكة هم المفضّلين عند الله على آدم لكان الرّكوع من طرف آدم، وليس الرّكوع له طاعة لله تعالى.

وعليه: كيف يَقبل عقل الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم، وفضّله على الملائكة، بأنّه قد تطوّر من كائن حيواني إلى بشرٍ؟ مع علمه أنّه قد خُلق في أحسن تقويم: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[71].

فالعالم داروين مع أنّه لم يجزم بقوله: إنَّ الإنسان والقرد يعودان لأصل واحد إثباتا، فإنّه يظن أنّهما يعودان من خلال التشابه في بعض صفات الهياكل التي أخضعت للمقارنة البحثيَّة.

ونحن نقول: السّلالات خُلقت خلقًا مستقلًّا، ولكلٍّ خصوصيَّته؛ فلا الذّباب يصبح جرادًا، ولا القمح يصبح شعيرًا، ولا التفاح

---

[68] البقرة: 31.

[69] البقرة: 33.

[70] البقرة: 34.

[71] التين: 4.

يصبح ليمونًا، ولا الحمير تصبح خيلًا، ولا الكلاب تصبح ذئابًا، بل لكلّ سلالته، ولكلّ سلالة جيناتها التي تميّزها عن الجينات والسّلالات الأخرى. ومع ذلك؛ فإنْ تشابهت المخلوقات؛ فالخالق واحد، ولكن التشابه لا يدلّ إلّا على تباعد الخصائص، ووجود الاختلاف؛ حيث لا تطابق؛ ولهذا فمهما تشابه المتشابهون؛ فهناك شيء مختلف بينهم، وهو ما يميزهم عن بعضهم.

وعليه:

هل يليق بنا أن نقول: كلّ من لديه معدة هو من أصل واحد؟ وكلّ ما له فقرات هو من جنس واحد؟ وكلّ من لديه جهاز تنفسي هو من نوع واحد؟ وكلّ من لديه عقل يعود إلى جدّ واحد؟

فمع أنَّ العقل يميّز خلق الإنسان، فإنَّ كلّ الكائنات لها عقول، ولها من الذّكاء ما يميّزها؛ فالطيّور لو لم تعقل ما بنت أعشاشها، والنّحل لو لم يعقل ما نظّم علاقاته تنظيما رفيعا، والفئران لها من الذّكاء ما يتعب القطط، وتحايل الثّعالب يرهق الحرّاس، وذكاء الغربان تجاوز معرفة الإنسان: {فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي}[72].

وكذلك مع أنَّ الخالق خَلق الإنسان في أحسن تقويم، فإنَّه لم يقصر حُسن خَلقه على الإنسان وحده، بل كلّ شيء خَلقه على الحُسن،

---

[72] المائدة" 31.

فما يره البعض على غير حُسنٍ، يراه البعض على الحُسن تماما: {أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ}[73]، أي: أتقن الله الحُسن في كلّ شيء خلقه، كونا ومخلوقات كونية، وفي مقدّمتها جاء خلق الإنسان في أحسن تقويم، ثمّ كان الحُسن والجمال والزّينة في بقيَّة الخلائق: {وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً}[74]؛ ولهذا فكلّ شيء خُلق على القانون الخلقي موزونا، ولا شيء يُخلق عبثا: {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}[75].

ولأنَّ الإنسان خُلق في أحسن تقويم، إذن: لا يوجد مخلوق أفضل منه، ومن ثمّ، فمن يُسلّم بالتطوّر الحيواني المزعوم؛ ينبغي عليه أن ينتظر تطوّرًا آخر، ولكن ليعلم أنَّه لا أفضلية بعد خلق الإنسان الذي خُلق على الزوجية كغيره من الخلائق: {جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا}[76].

ومع أنَّ لنظريَّة داروين باعًا في علم النّبات والحيوان، وما قدّمته من مقولات تتعلّق بخلق الإنسان ونشوئه وتطوّره، فظل للتقدّم العلمي كلمته في تغيير كثير من المقولات الداروينية، وبخاصّة التي ترى: أنَّ الفناء والهلاك للكائنات الضّعيفة الهزيلة، والإبقاء على الكائنات القوية، وفقا لقانون: (البقاء للأصلح)؛ حيث يبقى الكائن القوي السّليم الذي يورث صفاته القويّة لذريّته، وتتجمّع الصّفات القوية مع مرور الزّمن مكوّنة صفة

---

73 السجدة: 7.

74 النحل: 8.

75 المؤمنون: 14.

76 الشورى: 11.

جديدة في الكائن، وذلك هو (النّشوء) الذي يجعل الكائن يرتقي بتلك الصّفات الناشئة إلى كائن أعلى، وهكذا يستمر التطوّر ارتقاء[77]. ولا شكّ أنَّ الضّعف والوهن لا يولّد القوّة الفاعلة، ولا يجعل بقاءً صالحًا، وأنَّ القوّة المناعية المتوازنة تمكّن أصحابها من البقاء الأفضل، ولكن فوق هذا وذاك سيظل للتقدّم العلمي كلمته في تفادي الضّعف وتغييره إلى قوّة، وكما نعتقد سيكون الزّمن كفيلًا بذلك: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[78].

ومع أنَّ ما نظَّرَ له داروين مؤسّس على البحث والتقصي العلمي، فإنَّ تطوّر العلوم وصل إلى اكتشاف كثير من أسرار خريطة الجينات الوراثيَّة، وبإمكانه تحسينها واستبدال المشوّه منها بما هو أرقى؛ من أجل نشوء بشري وحيواني ونباتي خالٍ من العلل، وهكذا سيكون التطوّر من حسنٍ إلى أحسن، ومن أفضلٍ إلى ما هو أفضل منه، وبالتّالي في الوقت الذي فيه البيئة تُلوّث، العلم فيه يتطوّر حتى يمكّن من تطهيرها إن حَسُنت إداراته.

الحلقة المفقودة missing link:

مع أنَّ سلسلة التكاثر الخلقي متّصلة ولم تنقطع، فإنَّ معرفة الأثر المشترك الذي يعود إليه الجنس البشري ومن قالوا عنه الشبيه (الشمبانزي) لم يعثر عليه بعد؛ لتكون الإجابة حلقة ربط بين ما تمّ اكتشافه من معرفة،

---

77 تشارلز داروين، أصل الأنواع (نشأة الأنواع الحية عن طريق الانتقاء الطبيعي)، ترجمة: مجدي محمود، 2004، ص 154 – 157.

78 الإسراء: 85.

وما لم يتمّ اكتشافه؛ ولذلك فالحلقة ستظل مفقودة، وبخاصّة أنَّ الطبيعة تتعرّض للزلازل والبراكين كما تعرّضت للطوفان (زمن نوح)، وهذه الحقائق من علل إخفاء الأثر الذي على أثرها يمكن أن يظل حلقة مفقودة، أو أنَّه يجيب عن افتراضات من لا يرى إلّا ما يراه مشاهدة.

أمَّا القول: إنَّ داروين قال: إنَّ أصل الإنسان قرد؛ فهو بحقّ لم يقله، ولكن كثيرين البسوه قميصا غير قميصه، فهو لم يتحدّث عن الصّلة بين الإنسان والقرد إلّا تشابها؛ فمحتوى قوله: (يوجد شبه بين الأثر العظمي للإنسان والقرد، وكأنَّهما يعودان إلى أصل واحد). وهذا القول حفّز البحاث على بذل المزيد من الجهد؛ من أجل المزيد المعرفي، وبخاصّة أنَّ داروين لم يقتصر رأيه على العلاقة التشابهية بين الإنسان والقرد، بل وسّع استنتاجاته بقوله: إنَّ كلّ الفصائل لها جد مشترك (قديم). ومع ذلك فما قاله داروين لا يزيد عن كونه افتراضا محفّزا على مزيد من البحث العلمي، والتقصّي الدّقيق.

ولكن؛ ما قاله داروين قد فتح بابا للتّحاور والنّقاش وتبادل الحُجج العلمية والمنطقية، وتبادل ما يتوافر من مسلّمات ودلائل يمكن أن تصحّح معلومات خاطئة بمعلومات صائبة، ومن ثمّ؛ فلا احتكار للمعرفة، وبخاصّة بعد اكتشاف خريطة هندسة الجينات الوراثية التي أضافت إلى معارف الإنسان ما لم يكن يعرفه من قبل، وبالتّالي يمكن من خلالها الوصول إلى مزيد من التفسير العلمي المؤدّي إلى معرفة الحلقة المفقودة، أو تسلسل حلقات الوجود الخلقي أجناسًا وأنواعًا وسلالاتً حيث لا حلقة مفقودة.

ولأنَّ الخالق واحد، إذن: فلا استغراب، ولا تعجّب من وجود التشابه بين خلائق الخالق.

ومن ثمّ؛ فحيثما يوجد التشابه يوجد الاختلاف، ولكلٍّ منهما أهمية: فأهمية الاختلاف حتى وإن كان أقل من 1%؛ أنَّه الدّليل على وجود الخصوصية والتميّز والتنوّع.

أمَّا أهميَّة التشابه بين الكائنات والإنسان؛ فستكون نتائج التجارب التي تجري عليها (على تلك الكائنات الشبيهة) ذات أهمية عظيمة على الإنسان، سواء من حيث اكتشاف الأمراض والوقاية منها، أم من حيث علاجها، فإجراء التجارب على الحيوانات المتشابهة جينيًّا مع الإنسان ذات فائدة على صحة الإنسان، وسلامة بيئته التي تحوطه وتحتضنه.

ومع أنَّ التحدّث في السّابق كان عن وجود تشابه كبير بين الإنسان والشمبانزي، فإنَّ الدّراسات العلمية الحديثة أثبتت أيضا وجود علاقة كبيرة بين جينات الفأر والإنسان، وقد بلغت نسبة التشابه الجيني بينهما 99%، وهي بالتمام مثل النّسبة الجينية بين الإنسان والشمبانزي اللذين يشتركان في جينات متشابهة بنسبة 99% أيضا[79]؛ ولهذا ستتعزّز

---

[79] أميمة خفاجي، قضايا وآراء، جامعة قناة السويس، 24 أغسطس، 2003، العدد 42629.

ثقة الباحثين فيما يجرونه من تجارب مختبرية لدراسة الأمراض التي تلمّ بالبشر[80].

ومهما كان التشابه متقاربًا في أيّ صفة من صفات الخلائق بين السّلالات والأنواع والكائنات؛ فهو لا يعني تقاربًا في كلّ الصّفات والخصائص؛ فالشمبانزي والفأر والإنسان وإن كان التقارب بينهم في الجينات الوراثيّة كبيرًا جدًّا، ولكن سيظل الفرق بينهم واسعًا في صفات أخرى، سواء أكانت صفة شكل، أم هيئة، أم معرفة، أم علاقة، أم ثقافة وحضارة، أم تذكر، أم تدبّر، أم تفكّر، أو حتى سكون وحركة، ولذا؛ فلو كان للإنسان مئات الصّفات، وتشابه مع غيره من الكائنات الأخرى في عدد منها؛ فعلى ماذا يدلّ ذلك؟ بلا شكّ إنّه لا يدلّ إلّا على وجود اختلافات كبيرة.

ولهذا فمهما تقاربت الصّفات بين الخلائق؛ فلا يمكن أن يتساوى البائع والمباع، ولا يمكن أن يتساوى الصيّاد والطريدة؛ فالفأر سيظل فأرًا بعيد الصّفات عن صفات الإنسان، كما تبعد عنه صفات القرد الخاصّة به، ولكن هذا لا يعني تقليل شأن التشابه الذي تمّ اكتشافه في الجينات الوراثية بين الإنسان والفأر والقرد؛ بل ما ثبت من تشابه ستكون نتائج تجاربه بلا شكّ ذات فائدة على الإنسان.

ومع أنّ البحاث يسعون إلى مزيد من البحث العلمي من أجل معرفة الحلقة المفقودة، فإنّ معظم المتشابهات المشتركة بين الإنسان وبقيّة

[80] جريدة الشرق الأوسط الخميس 30 رمضان 1423 هـ 5 ديسمبر 2002 العدد 8773.

الحيوانات هي متماثلة بالتّمام؛ فكلّها تتوالد وتتكاثر تزاوجًا، وأجهزتها لا تختلف وظيفة؛ فالكليتان هما الكليتان وظيفة، والمعدة هي المعدة، والجهاز التنفسي هو الجهاز التنفسي، والرّضاعة هي الرّضاعة، وهكذا بقية الحواس هي الحواس، والحمل هو الحمل: {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ}[81]، وغيرها كثير؛ ولذا فلا حلقة مفقودة بين المتشابهات، بل الحلقة المفقودة؛ إذ لا إمكانية للتطابق.

ومع أنَّ داروين قد بحث وفسّر، وفتح بابا أمام من يجتهد، حتى يتمّ اكتشاف مصادر حلقات السّلالات النوعيَّة، والجينات الوراثيَّة للأجناس والأنواع، فإنَّ هذا لا يعني أن يُضرب بقول الخالق عُرْضَ الحائط وهو المنزّل للحقائق التي يتساءلون عنها قبل أن يخلق داروين الذي أصبح عنوانا في ميادين علوم الحياة.

فالله قال: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[82]، فقوله: (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ) لم يستثنِ شيئًا إلّا وقد خلقه على الزّوجية خلقا مستقلًّا عن الأزواج الأخرى، ثمّ قال: {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ}[83]. إنّها عمليَّة خلقية مُحكمة لم تترك ثغرة لنفوذ نوع إلى نوع آخر إلّا وفقا لسلالته؛ ولذلك لا تشويه لخلق الله، مع أنَّ البشر بإمكانهم التدخل للتّشويه الشكلي والظاهري، أمَّا الجينات وإن تمّ التلاعب بها، فإنّها ستظل خاصّة مثل البصمة.

---

[81] الزمر: 6.

[82] الذاريات: 49.

[83] الزمر: 6.

نشوء الإنسان مقوّم:

التقويم الإنساني يعدُّ خَلقًا وفقًا لما يجب، وهذا الخلق هو الذي نشأ الإنسان عليه، ولكن قرار الإنسان في دائرة التخيير بيده، وبالتّالي يمكنه أن يستخدم حُسن التقويم فيما يجب، وهنا تكمن القوَّة، ويمكن أن يستخدمه فيما لا يجب، وهنا يكمن الضّعف.

فالإنسان دائمًا إنْ أراد تحدّي الصّعاب؛ فعليه بامتلاك القوَّة، والسّعي على استمدادها من مصادرها؛ حفاظًا على بقاء حُسن التقويم، ولكن كيف تستمدّ القوَّة من القوي والله قال: {وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}؟

الإنسان في أساس خلقه، خُلق على القوَّة: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[84]، وأحسن تقويم، وأحسن تصويب، وأحسن خِلقة ممّا خلق من المخلوقات كلّها، فكلّ المخلوقات من ملائكة وجنّ وغيرها، جاء الإنسان مفضّلًا عليها في الخَلق والتقويم؛ فالإنسان كونه مخلوقًا مفضّلًا، لم يكن على الضّعف، ولكن في غير مقارنة، إنَّه الضّعيف أمام قوَّة الخالق تعالى، وهو الضّعيف أمام الشّهوة؛ فعندما تغالبه الشّهوة، يكون ضعيفا؛ ذلك لأنَّ الشّهوة هي الضّعف الذي خُلق الإنسان عليه، فإن سيطرت الشّهوة على عقل الإنسان وقلبه، كان الإنسان على طبيعة خلق الشهوة ضعيفًا، ولكن إن هيمن العقل والقلب على الشّهوة فالإنسان لا يكون إلّا قويًّا، وهذه صفات لا تستمدّ إلّا من صفات

[84] التين: 4.

الخالق؛ ولأنَّها تستمدّ من صفاته تعالى؛ فصفاته قوَّة، وهي: مصدر لكلّ قوَّة.

ومن ثمّ؛ فالاستغراب أن يغترّ الإنسان بنفسه، فلا يلتفت إلى ما يجب أن يَقدِم عليه قوَّة، وما يجب أن ينتهي عنه قوَّة، وهنا يكمن الضّعف: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ}[85].

ولأنَّ الإنسان في أساس خلقه، قد خُلق على القوَّة؛ قال الله لموسى: {فَخُذْهَا بِقوَّة وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا}[86].

ولسائل أن يسأل:

ومن الذي يستطيع أن يأخذ ما يأخذه بقوَّة؟

أقول: الذي يمتلك قوَّة تمكّنه من الأخذ أخذًا؛ ولأنَّ القوّي تعالى يعلم أنَّ المخاطب قويٌّ قال له: (فَخُذْهَا بِقوَّة)، ولأنَّه قوي، قال له: (وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا)، أي: عليك يا موسى أن تأخذها بقوَّة، وعليك أن تأمر قومك بقوَّة الأخذ بأحسنها، أي: إنَّ القوي الأوّل هو الله، فأمر موسى بقوَّة الأخذ، فأخذها موسى بقوَّة طاعة للأمر، ثمّ إنَّ موسى بقوَّة أخذه أمر قومه أن يأخذوا بأحسنها.

ومن غير مقارنة، كلّ المخلوقات هي على الضّعف أمام قوَّة الخالق، ولكن أقوى المخلوقات وأفضلها هو الإنسان: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى

---

[85] الانفطار: 6، 7.

[86] الأعراف: 145.

آدَمَ}[87]، اصطفاه مفضّلا على الملائكة والجن: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا}[88].

ومع أنَّ آدم تمّ اصطفاؤه نبيًّا للملائكة والجنّ والإنس، فإنَّ الله أهبطه على الأرض، بعد خطيئة ألمت به وزوجه، بأسباب الشّهوة التي أضعفته؛ فكان على الأرض نبيًّا قويًّا، بقوَّة النبأ الذي سجدت له الملائكة.

وعليه: فالإنسان بقوَّة الشّهوة يضعف؛ فيخطئ، كما أخطأ أبونا آدم، وبقوَّة الإيمان الإنسان يقوى؛ فيستغفر، ويتوب؛ ولذلك فالأقوياء لا خوف عليهم: (فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) ولكن الخوف على الضّعفاء الذين فقدوا القوَّة.

ولأنَّ نشوء الإنسان كان خلقا معجزا في أحسن تقويم؛ فبه كان الإنسان مفضّلا، ولكن لأنَّه في دائرة التخيير فقد لا يحافظ على تفضيله، ويلقي بيديه إلى التهلكة: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}[89]. وهنا يكمن الضّعف، ومع ذلك فالضّعف قابل للتغيير إذا ما تبنّت أيدي الأقوياء أيدي الضّعفاء، أي: إنَّ الضّعف إذا لحق البعض بما عملت أيديهم؛ فينبغي للبعض الذي يده قويَّة أن يتحمّل مسؤوليته تجاه الضّعفاء: {وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ}[90]، إنَّه التفضيل الذي ينبغي

87 آل عمران: 33.

88 البقرة: 34.

89 البقرة: 159.

90 النحل: 71.

أن يقدّر من قبل القادرين رزقًا؛ فيأخذوا بأيدي من ضعف جهدًا أو معرفةً أو مالًا، حتى ينهض ارتقاء إلى ما يجب أن يكون عليه عملًا ومعرفةً.

ومع أنَّه التفضيل، فإنَّه كما يكون على (التميّز) يكون على (التمييز)؛ فالتميّز: نشوء خاصيّة قد تكون خلقية كما هو تميّز البشر عن بقية الخلائق، وقد تكون الخاصيّة تميّزا بالعمل: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}[91].

أمَّا التمييز: فمنه التمييز الخَلقي، ومنه بأيدي النَّاس؛ فالخَلقي فيه تساوي ميز؛ حيث كلٌّ مميّز بخاصيّة: {وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ}[92]؛ فلا ينبغي أن يتمنى الذّكر أن لو خُلق أنثى، ولا ينبغي أن تتمنى الأنثى أن لو خلقت ذكرًا؛ لأنَّ كلّا منهما خُلق مفضّلا بما خُلق عليه من نوع (ذكر وأنثى).

أمَّا التمييز الذي بأيدي النَّاس فهو المتعارض مع التفضيل الذي ينبغي أن ينشأ الخَلق عليه؛ فالخالق فضّل النّوعين (الذّكر والأنثى) ونهى عن التفضيل بغير حقّ: (وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ)، فالتمييز بين النَّاس يمكن أن يكون موجبا، ويمكن أن يكون سالبا؛ فإن كان بالعمل فلا شكّ الذي يعمل غير الذي لا يعمل، ولكن إن كان

---

[91] الزلزلة: 7، 8.

[92] النساء: 32.

على حساب ممارسة الحقوق، وأداء الواجبات، وحمل المسؤوليات فلا ينبغي، وهنا تكمن المظالم.

نشوء الأزواج:

النشوء الزّوجي نشوء إعجازي تلازمي؛ حيث اقتران الأزواج خلقًا من تراب: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ}[93]، خلقًا تلازميًّا ولا تفرقة، ولا أفضليَّة لمخلوق على مخلوق من ذات النّوع؛ فالإنس كونه سلالة طينيّة خلقه النوّعي واحد: (الذّكر والأنثى)؛ ولذا جاء نشوء البشر من نفس واحدة (من طينة واحدة).

ولأنَّ الخلق الأوّل زوجي فلا أحد خُلق من أحدٍ: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ}[94]، ومع ذلك فالبعض يسأل:

وأين نحن من خلق حواء التي خُلقت من ضلع آدم؟

عندما تكون الإجابة من الله تعالى قاطعة للشكّ فلا داعي لغيرها، وعندما يختلف قول البشر عن قول الله فلا مجال للظنّ؛ فكيف الله يقول: (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ) ويأتي البعض ويقول: خُلقت حواء من ضلع آدم الأعوج؟

فقوله: (من كلّ شيء) لا يستثني شيئًا من الخلق الزّوجي، فكلّ المخلوقات خلقت على (الزوجيَّة)، ولم تخلق من (التزاوج)؛ فالتزاوج اختياري وهو الذي حصل بعد الخلق الأوَّل للإنسان الأوَّل: {وَهُوَ الَّذِي

---

[93] الروم: 20.

[94] الذاريات: 49.

أَنْشَأَكُمْ مِّنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ}[95]؛ فمن نفس واحدة، تعني: من طينة واحدة، أي: من نفس الطّينة، فلا أحد أفضل خلقًا من الآخر: {وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ}[96].

إذن: فمن نفس واحدة تدلّ على وحدة الخَلق الزّوجي، ولا تدلّ على أسبقية آدم على زوجه؛ ولذا فكيف لنا بأخذ القول: إنَّ زوجه قد خلق من ضلعه، والله يقول: (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ)؟

ومع أنَّ النّشوء البشري من نفس واحدة، وهي (الإنس) فإنَّ لكلّ نفسه: {جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا}[97]، أي: جعل الأنفس من بعد آدم وزوجه، أنفسا متعدّدة؛ فبعد ذلك النّشوء الزّوجي من طينة واحدة (النّفس الواحدة)، وهي طينة خلق (الإنس)، أصبحت الأنفس تتعدّد ولادة وسلالة زوجية: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِّنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ثُمَّ أَنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ أَنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ}[98].

تبيّن هذه الآية تطوّر النّشوء البشري بداية ونهاية؛ فبداية كانت السّلالة الخلقيّة من طين، والسّلالة هنا، النّوع ذو المعدن الثّمين؛ ولذا

---

95 الأنعام: 98.

96 النساء: 32.

97 الشورى: 11.

98 المؤمنون: 12 ـ 16.

فسلالة نشوء البشر جاءت نوعًا متميّزًا عن بقية السّلالات، أي: إنَّ سلالة نشوء الإنسان الأوَّل: (آدم وزوجه) سلالة طينيَّة (تراب). ولكن أي تراب؟ إنَّه الصّلصال، وهو أجود أنواع الطّين الخَلقي: {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ}[99]، والصّلصال لم يكن فخارًا، بل يشبهه، فجاء التشبيه؛ لتقريب المعني والتعريف بالمشبه: (كَالْفَخَّارِ)، ومن ثمّ فقد ارتبط الصّلصال بالنّوعيَّة الرّاقية، والجودة الرّفيعة.

نشوء التزاوج:

التزاوج ثنائيَّة الأفراد المستقلّين (آدم وزوجه) فكان النّشوء من بعدهما ليس خَلقًا مباشرًا كما هو خلقهما من نفس واحدة؛ فهما وإن خُلقا على الفرديَّة، ولكنَّهما من طينة واحدة (نفس الطّينة) نفس واحدة.

أمَّا التزاوج؛ فهو التقاء توافقي نتج عنه نشوء وسلالة ليست من طين: {ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ}[100]، أي: من نطفة: {ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ}[101]، فالخلق الذي جاء بالإنسان الأوَّل انتهى بوجود: (آدم وزوجه) ثم نشأت سلالة خلقيَّة مبذورة من صلب الإنسان الأوَّل، وهذه السّلالة لم تكن من ذلك الطّين (التراب) الذي خُلق منه آدم وزوجه في أحسن تقويم. وكيف لا يكون الإنسان في أحسن تقويم، وهو المخلوق في الجنّة من صلصال كالفخار؟ فهذه لا استغراب

[99] الرحمن: 14.

[100] السجدة: 8.

[101] المؤمنون: 13.

فيها، ولا مفاجأة، ولكن الاستغراب: لماذا لا يحافظ من خُلق في أحسن تقويم على حُسن تقويمه؟

ومع أنَّ نشوء السّلالة الجديدة كان بذرة: (نطفة)، فإنَّه لم يبق بذرة: (نطفة)، (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً)؛ حيث دبّت الحياة من زوجيّة مشتركة في علقة مشتركة تخصيبا: (فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً) أي: أصبحت السّلالة تتكوّن دمًا ولحمًا، ثمّ عظامًا: (فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا)، ثم كسيت العظام لحمًا بدنيًّا على صورة الإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم: (فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا)؛ حيث اكتمال الخلق نشوءًا على صورة أخرى، وكأنَّه مشاهدة لا علاقة له بالمراحل الخلقية السّابقة: {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ}[102].

أي: إنَّ السُّلالة البشريَّة ستظل بحكم قانون الوراثة جينات ثابتة بداية ونهاية (بداية خلقيَّة، ونهاية عدميَّة)، بمعنى: سيكون أثر السّلالة البشريَّة بداية من النّطفة، ونهاية بالأثر، ولو كان رفاتًا ترابيًّا؛ فاليوم أصبح البحث العلمي متقدّمًا في اكتشاف الأثر الجيني والوراثي الذي يبقي الجنس والنّوع والنّسب دون لبس ولا غموض.

ولذا؛ فلا إمكانيَّة لتطوّر الكائنات لتكون خارج الجنس أو النّوع الذي خُلقت عليه خلقًا، وبخاصّة بعد اكتشافات (DNA) التي تحمل معلومات وراثيَّة: (المورثات والجينات)؛ ومن ثمّ فلو كان القرد ابن عمّ

[102] آل عمران: 34.

الإنسان كما يقول داروين؛ فهل سيظل هذا سرًّا أمام معرفة DNA لكلّ من الجنسين؟

وعليه:

خُلقت الحياة أزواجًا، ونشأت الحياة تزاوجًا، فكانت الحياة مكوّنة من: (وجود وعدم)؛ إذ الموت في ملاحقة الحياة، ولكلٍّ أسبابه كما هو حال ابني آدم، اللذين كان الصّراع بينهما صراع بين حقّ وباطل: {فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ}[103]. ومن هنا، بدأ النشوء مرحلة جديدة بين زيادة ونقصان (مواليد وأموات).

ولكن دائمًا التزايد أكثر من النقصان، وبخاصّة بعد الرُّقي العلمي، ومقاومة الآفات؛ إذ أصبح متوسط الأعمار ناهضًا عمّا كان عليه في سنين الانحدار العلمي.

وهكذا سيظل التحسُّن البيئي والغذائي والمناعي من عوامل البقاء الرّئيسة، شريطة أن يسود السّلام المخرج من تلك المأساة التي حدثت بين ابني آدم، الذي أصبح الخلاف من بعدهما يدبّ بين الأخوة والأقارب والأباعد على القيم والفضائل والحاجة، والمكانة والمصلحة. وبالتالي فالوجود الذي كان في أحسن تقويم بقاءً، أصبح نشوءًا متأثرًا بهذه العلل، فُرقة وخلافا واقتتالا، عوضًا عن التّعاون المشبع للحاجات المتطوّرة والمتنوّعة؛ من أجل الارتقاء والبقاء الأصلح.

[103] المائدة: 30.

فبعد تلك السّابقة المؤلمة بين ابني آدم، أصبح البقاء للأصلح قوّة، بدلًا من الأصلح قيمة أو فضيلة، ما جعل النّشوء البشري معرّضًا للتهلكة والفناء، أكثر من تعرّضه للبقاء ارتقاء.

إنَّ غِلظة القلوب على القلوب تنزع بالبشر إلى نشوء منحدرٍ ترتفع فيه أسهم السّلاح أكثر من ارتفاع أسهم القيم الإنسانية؛ ولكن مع ذلك ستظل المعلومات الصّائبة تصحح المعلومات الخاطئة.

فعلى المصلحين أن لا يستغربوا ما يجري من انحدار نشوءٍ بين البشر؛ لأنَّ حقيقة البشر هم بين مهتدٍ وضال، ومستقيم وسقيم، وعادل وظالم، وفقيه وجاهل؛ ولذلك قال تعالى: {أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ}[104]، {أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}[105]، {أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ}[106]، وغيرهم من الكثر كثير.

ومع أنَّ الخلق البشري كان في أحسن تقويم، فإنَّ نشوء الكثرة أصبح على غير هذه القاعدة القيمية، ومن ثمّ أصبح النّشوء منحدرًا من منصّات القيم الحميدة، والفضائل الرّفيعة إلى سُفليَّة الوجود، التي جعلت بعض العلماء والمنظّرين يصفون ما يشاهدونه ويلاحظونه من انحدار قيمي بأنَّه ميل الإنسان إلى الحيوانية على حساب البقاء الأصلح والنّشوء الرّفيع؛ ممّا دعاهم إلى البحث عن آثار الإنسان الأوّل لعلّه لم يكن إنسانا.

---

[104] الأنعام: 111.

[105] الحجرات: 4.

[106] المائدة: 59.

وباكتشافهم وجدوا معطيات أثرية لهياكل عظمية بشرية تدلّ على أنَّ الإنسان القديم كان أقل رُقِيًّا من الإنسان المعاصر، كما أنَّ نظرية Origin Of Species ترى أنَّ "أشكال الحياة المختلفة تعود إلى أصل واحد مشترك وأنَّها بدأت من خلايا حيّة تكوّنت عن طريق المصادفة، وأنَّ الحياة الأولى وجدت مصادفة"[107].

ولكن كيف لنا بقبول خلق الكون بأسره من لاشيء، ثمّ الأخذ بالقول: أنَّ الحياة الأولى وجدت مصادفة؟

وكيف لنا بقبول المصادفة، وأنَّ الله خلق الأزواج كلّها خلقًا (لا مصادفة)؟

ومع أنَّه حتى الآن لم نجد آثارًا مؤكّدة للحيوان الذي انحدر منه الإنسان والقرد الشبيه كما يزعمون، فإنَّ البعض يرى صلة سلالية تربط الإنسان بالقرد، وهذه لا حقائق تسندها؛ فهي مجرّد قولٍ ليس إلّا، وهذا ما أكدّه العالم جوهانس ووكر عام 1956م الذي أعلن عن اكتشاف قطعة فحم حجري بها فكّ إنسان يرجع إلى عشرة ملايين عام، وهي أقدم قطعة من بقايا الإنسان في العالم، وتعدّ دليلا شاهدا على ذلك بمتحف (بال) بسويسرا، ومن ثمّ، قال العالم جوهانس ووكر: أنَّه لا يوجد أدنى دليل على أنَّ الإنسان من سلالة القردة.

107 Charles Robert Darwin Origin of Species the Harvard Classics. 1909 p 114.

أمَّا داروين فيقول: على الرّغم من أهمية الأحافير في إيجاد دليل على حدوث التطوّر؛ لكنَّ السجلّ الجيولوجي أشبه ما يكون بكتاب فُقدت بعض صفحاته، ولم يبق منه سوى صفحات قليلة متناثرة، وفي تلك الصّفحات الباقية لم يبق إلّا كلمات قليلة في كلّ صفحة[108]؛ ولهذا فلا يقين فيما يقال أو يدّعى به من تشابه سلالي بين الإنسان والقرد.

ولأنَّه لا يقين، إذن: فلا حكم على وجود علاقة نشوء بين الجنسين (الإنسان والحيوان) لتعود بهما إلى أصل واحد، ولا أحد يستطيع أن يفصل في شيء بغير حقيقة، ممّا يجعل الشكوك والادعاءات ليست بحجج: {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ}[109].

ولأنَّ الخلق الأوّل للكائنات خَلق زوجي، فهو خلق أجناس وأنواع، ولم يكن خلق تكاثر إلّا بعد التزاوج (الثنائية المتعدّدة) التي لا مجال فيها للنّشوء والتطوّر إلّا داخل الجنس الواحد، فالإنسان كونه أرقى المخلوقات، لا يمكن له أن يتطوّر ليكون على غير جنسه البشري، ولا يمكن لغيره من الأجناس والأنواع الأخرى أن تتطوّر لتصبح بشرًا. ولذلك فقد خلق الخالق من كلّ شيء زوجين؛ إذ لا لبس ولا شبه ولا تداخل، فكلّ اثنين: (ذكر وأنثى) من كلّ شيء، حتى الفواكه لا تعود لسلالة واحدة، بل تعود إلى سلالات متعدّدة الأزواج: {مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ

[108] تشارلز داروين، أصل الأنواع، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ص 538 . 571.

[109] الأنعام: 57.

زَوْجَانِ}[110]. أي: إنَّ الفاكهة لا تعود إلى زوجين بعينيهما، بل تتنوّع الفاكهة أزواجا وسلالات مختلفة وستظل متنوّعة.

وعليه:

كيف يَقبل العقل البشري أنَّ الإنسان والقرد يعودان إلى سلالة واحدة، وهو في الوقت ذاته يعلم أنَّ الفاكهة التي يظنّها من سلالة واحدة هي ليست كذلك؟

ومن ثمّ؛ فالكائنات تتكاثر أنواعا، ولا تتطوّر أجناسا؛ فالقرد الذي خُلق قردا، سيظل على ما هو عليه قردا متميّزا بما ميّزه الخالق، وهكذا النباتات ستظل نباتات، والإنسان لم يكن قردا وسيظل إنسانا؛ ولكن الإنسان لا بدّ أن يرتقي ويتطوّر على القيم الحميدة والفضائل الخيّرة، ولا ينبغي أن يغترّ معرفة وعلما: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ}[111]. أي: فعلى الإنسان أن يعلم أنَّه لم يؤت من العلم إلّا القليل.

ولهذا؛ فالتطوّر ضرورة لحياة الأجناس من أجل البقاء الأحسن، والنّشوء سيظل قابلا للتّحسين النّوعي من أجل الأفضل والأجود، ولا شكّ أنَّ الإنسان الذي بين يديه المعارف، على يديه تتحقّق النُّقلة النّافعة، التي تمكّنه من البقاء الأصلح.

---

[110] الرحمن: 52.

[111] الانفطار: 6 . 8.

فالإنسان الأوّل مع أنَّه خُلق في أحسن تقويم، فإنَّه لن يبلغ الكمال؛ فهو المخلوق على الحاجة المتطوّرة وإن حَسُن تقويمه، ومع ذلك وإن تيسّرت مشبعات حاجاته المتطوّرة كما تيسّرت لأبينا آدم (الإنسان الأوّل) يظل للرّغبة مؤثراتها، وللمعلومات الخاطئة تأثيراتها السّلبيَّة على النّشوء والارتقاء البشري: {فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}[112].

إذن: فعندما تأتي المعلومة الخاطئة، وممّن تأتي؛ فهي المؤدّية إلى ما يسيء للخَلق الإنساني، أي: متى ما حلّت بين النَّاس المعلومات الخاطئة، حلّ الفساد ديارهم، وساد بينهم الانحراف؛ ولهذا دائما المقدِّمات الخاطئة تؤدّي إلى نتائج خاطئة.

ومع أنَّ الوسوسة كانت لأبينا آدم كونه النّبي الذي أنبأه الله بما لم ينبئ به الملائكة، فإنَّ الأكل من الشّجرة المنهي عنها كان من أبوينا معًا: (آدم وزوجه) اللذين أكلا منها: (فَأَكَلَا مِنْهَا).

ولأنَّ ما حدث معهما هو درس لهما ولمن حولهما: (ملائكة وجن)؛ فهو الدّرس الباقي لمن يأتي من سلالتهما من بشر، فمن يتّعظ يتجنّب المنهي عنه، ويمتنع عن المحرّم والمجرّم، ومن لا يتعظ؛ فسيكون الثّمن لا مقدرة على دفعه، والزّمن كفيل بذلك، وحتى لا يغفل النَّاس

[112] طه: 121 . 122.

عمّا يجب، بعث الخالق الأنبياء والرّسل منذرين ومبشرين ومذكرين: {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ}[113].

وعليه:

فلا كمال للنّشوء الزّوجي: (نشوء الجنّة)، ولا كمال للنّشوء التزاوجي: (نشوء الحياة الدّنيا)، بل الكمال لله وحده؛ فالنّشوء بنوعيه هو نشوء حاجة، غير أنَّ النّشوء في الجنّة نشوء مشبع على التمام، أمَّا النّشوء الدّنيوي؛ فهو نشوء الحاجات المتطوّرة التي يحفّها العوز بين الحين والحين؛ ولذلك فالحياة الدّنيا ستظل على الحاجة التي كلّما نقصت جعلت عدد المطالبين بما يشبعها متزايدا، وكلّما اشتدت عوزا جعلت من البقاء عدما.

ومن هنا، ترتبط مصائر البشر بالحاجات ومشبعاتها، ولا بقاء صالح لمن خُلق في أحسن تقويم ما لم تكن مشبعات الحاجات المتطوّرة متطوّرة، ومن يتحكّم في مشبعات الحاجات المتطوّرة، يتحكّم في مصائر البشر، ومن ثمّ، تصبح آلام الحاجة وضرورات البقاء محفّزة على التمرّد والمواجهة مع قبول دفع الثّمن من أجل الحياة.

الخَلق ثابت والنّشوء متبدِّل:

الخلق إعجاز لا يكون إلّا من خالق، والخالق يخلق ولا يُخلق، يخلق كلّ شيء ولا يخلقه شيء، وإن أصبح اللاشيء شيئًا أصبح مخلوقًا، وإن أصبح مخلوقًا فمن ورائه خالق، فعلى سبيل المثال: تلك النقطة التي

[113] الغاشية: 21.

يشار إليها بالذّرة لو لم تكن مخلوقة ما وُجِدت، ومع أنّها كما يقولون: ذرّة وقد انفجرت، وأنَّ انفجارها خلق الكون من لا شيء، ومن غير خالق. لكنّ العالم لورنس كراوس لم يقل عنها: قد خلقت نفسها من لا شيء؛ ولذا فكيف يقل العقل أنَّ الكون قد خُلق من تلك الذّرة، وفي المقابل يقبل بخلق الكون من لا شيء وهو نتاج ذلك الانفجار لتلك الذّرة التي لم يقال عنها قد خلقت نفسها قبل أن يخلق الكون من انفجارها العظيم؟

ولأنَّ الخلق بيد الخلّاق؛ فالخلّاق خَلقهُ لا ينقطع، فهو قد خَلق ويَخلُق وسَيخلُق، وهو كما خَلق الزّوجين من تراب خلق نسلهما من نطفة، وهو يخلق بلا انقطاع، وسيخلق بلا فواصل؛ فالخلق البشري هو ذات الخلق سواء أكان من تراب، أم من نطفة، وكذلك الحيوان هو حيوان سواء أكان من تراب أم من نطفة، والنباتات المتنوّعة ستظل على التنوّع مع إمكانية تحسينها علما؛ ولهذا فالخلق ثابت والنّشوء يمكن أن يكون عليه نشوءا متبدّلا.

فالنّشوء الأوّل يعدّ نموّا خَلقيًّا للأجناس والأنواع التي خُلقت خلقًا زوجيًّا: (ذكر وأنثى)؛ فكان نشوؤها من الأرض وهي مرتقة مع السّماوات جنّة، ثمّ فتقت وأهبط بها وهم على ظهرها إلى الحياة الدّنيا، فأصبح التزاوج بذرة التكاثر بين الأحياء.

ولذلك كانت علاقة النّشوء الأوّل قبل الهبوط بالخالق علاقة مباشرة، فلا علاقة إلّا معه؛ إذ لا أبناء لشغل حيّز من الالتفات، وكذلك كان الحوار مع الخالق مباشرًا؛ لأنَّ الوجود الخلقي كان على أرض الجنّة:

(سماوات وأرض مرتقه) فالكلام مع الخالق لا حواجز تفصله مع الملائكة والإنس والجن: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ أنيِّ جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ أنيِّ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[114].

ولأنَّ الجنّة مكان الكلام المباشر مع الله تعالى؛ فهي مكان الحياة العليا التي متى ما كان المخلوق فيها كان في علو مأوى وحظوة بجنب الخالق؛ ولأنَّه لا حواجز ولا وسائط مع الخالق، قال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا أنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ أنيِّ أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ}[115].

ولأنَّ علاقة المخلوق مع الخالق علاقة مباشرة؛ فكان أمر الخالق ونهيه لخلقه مباشرا، سواء أكان مع الملائكة الطّائعين، أم مع الإنس المجادل، أم مع الجنّ الموسوس: {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ أنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ

---

[114] البقرة: 30.

[115] البقرة: 31 . 35.

قَالَ أَنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ}[116].

كلّ هذه المحاورات هي جزء من محاورات أخرى جرت في الجنّة؛ إذ خُلق الخَلق الأوّل: (ملائكة، وجنّ، وإنس، وغيرهم ممّا لا نعلم)، ولكن ما نعلمه: أنَّ الملائكة لم يخلقوا على التكاثر الزّوجي كما هو حال بقيَّة المخلوقات، فالملائكة خلقوا خلقًا مثلما خُلق آدم وزوجه، ولكن آدم وزوجه تزاوجا؛ فأصبح النّشوء من بعدهما نشوءا متكاثرا من نطفة بعد أن كان نشوءا من تراب؛ ولذلك فالملائكة يخلقون خلقا معجزا، ولا يتزاوجون زواجا: {أنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَأنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شيئًا}[117].

أمَّا مرحلة النّشوء الثانية إعجازًا فهي مرحلة الهبوط على الأرض، التي من بعدها بدأ التبدّل الخلقي؛ فبعد أن كان الخلق البشري من طين الجنّة على أرض الجنّة، أصبح الخلق البشري نشوءا من نطفة على الأرض الدّنيا، وهكذا بقيّة الأزواج التي أهبط بها والأرض إلى الحياة الدّنيا، سواء أكانت أزواج كائنات حيوانية، أم إنَّها أزواج حبات بذور، أم إنَّها نباتات

[116] الأعراف: 12 . 19.

[117] النجم: 27، 28.

كانت في الجنّة وأهبط بها على الأرض مع بقية الخلائق، ومن ثمّ أنتجت في الأرض الدّنيا بذورًا تخلفها.

ولأنَّ الحياة الدّنيا يلاحقها الموت؛ فهي لم تكن حياة بقاء مثل الحياة على الأرض الجنّة؛ ولذلك فكلّ تزاوج يصاحبه التناقص؛ إذ لا ديمومة للبقاء: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ}[118].

ولأنَّ كلّ من على الأرض الدّنيا فانٍ، إذن: فالعدم مرحلة من مراحل الوجود في الحياة الدّنيا، وفي المقابل لا عدم في الجنّة؛ ذلك لأنَّها أرض البقاء الدّائم؛ إذ لا موت.

وسيظل الموت يلاحق الأحياء المتكاثرين إلى أن يقضي عليهم جميعا، ويومها سيكون الموت آخر الأموات، ويومها يبعث الأموات جميعهم إلّا الموت لن يُبعث؛ إذ لا مكان له في الحياة الخالدة (الجنّة): {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ نباتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا}[119].

أي: بعد أن أنشأكم الله النشأة الأولى خلقا زوجيًّا في أرض الجنّة المرتقة مع السّماوات، ثم تكاثرا تزاوجيًّا في الأرض الدّنيا، ثمّ موتًا فرديًّا يعيدكم في الأرض الدّنيا عدما ولا استثناء، ثمّ ينشئكم بعثا في نشوء آخر لحياة سرمدية؛ حيث البقاء الذي لا موت من بعده: {وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى}[120].

---

[118] الرّحمن: 26.

[119] نوح: 17، 18.

[120] النجم: 47.

وعليه:

فالخلق الأوّل خلق معجز من لا شيء (إذ لا وجود)، والخلق الثاني نشوء معجز من خلق موجود فالحياة خُلقت أوّلا، ثمّ الخلائق ثانيًا، ولكن ممّا خُلقت الخلائق؟

خُلقت الخلائق ممّا نعلم، وممّا لا نعلم: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}[121].

فممّا نعلمه هو:

. خلقت الخلائق من الأرض الجنّة أزواجا: (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ).

. خلقت في الأرض الدّنيا تزاوجًا: (وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ).

أمَّا ما لا نعلمه؛ فالخالق يخلق ما يشاء كيفما يشاء: (وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ)، أي: إنَّ الإنسان من نعم إيمانه، فهو يعلم أنَّه يجهل؛ ولهذا فالخلق لا يقتصر على ما يعلمه.

ولأنَّه الخلَّاق فخلقه لا يتوقّف: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ}[122].

---

[121] يس: 36.

[122] يس: 81.

التكيّف بقاء:

مع أنَّ الكائنات خُلقت على خصائص وصفات، فإنَّ للمفاجآت أثرًا عليها، وعلى الرّغم من المفاجآت، غير أنَّ الكائنات خُلقت على التهيؤ: (التهيؤ الخَلقي، والتهيؤ السّلوكي)؛ ومن هنا، فالتكيّف يولد مع الولادة خَلقا، ثمّ يتولّد بعد ذلك تدبّرا؛ فالكائنات كلّما أحسّت أو شعرت بما يعرّضها لما يُقلق، أو يشكّل خطرا عليها، تتهيأ لمواجهته حيطة وحذرا؛ ولذلك نجد بعضها يتلوّن مع ألوان البيئة تكيّفا واختفاء، وبعضها يتكيّف مع التغيرات الفصليَّة والمناخيَّة، وبعضها العاقل يتكيّف مع ما يواجهه من إجراءات وأعمال في دائرة الممكن، ومع ذلك يبقي للفعل المضادّ أثره. فالبيئة وإن تكيّفت الكائنات مع متغيراتها، يظل لمتغيراتها صفات وخصائص خُلقيّة، مثلما للكائنات صفات وخصائص خلقية؛ ولهذا فالكائن الضّعيف لا يستطيع أن يصمد كثيرا؛ فكثير من النباتات والحيوانات تعيش في بيئة معينة، وتضعف في بيئة ثانية، ولا تنمو في بيئة ثالثة، أو لا تنضج ثمارها في بيئة رابعة.

فالتكيّف عمليَّة ملائمة ومقدرة على التحسّن في بيئات مختلفة؛ من أجل المحافظة على الحياة وبقاء الأجناس والأنواع، وقد يكون باكتساب خصائص جديدة، أو فقدان خصائص كانت سائدة؛ ممّا يجعل المتكيّف على حالة أو صفة معيّنة لم يسبق له أن كان عليها، وهو قدرة الكائن الحي على الاستجابة للمؤثّرات الطّارئة أو أيِّ سلوك تطوّري بهدف البقاء.

ومع أنَّ النّشوء خَلقي، فإنَّ بقاء الخلائق لا تساوي فيه؛ فهناك من يبقى متكيّفا حتى النّهاية، وهناك من يزول عدمًا، ومن ثمّ؛ فالتكيّف adaptation لا يكون إلّا عن قوّة، سواء أكانت قوّة بدنية أم عقلية أم مناعية.

ومع أنَّ التكيّف قوّة، فإنَّه يكون مع السّالب، ممّا يستوجب تقديم التنازلات من أجل البقاء فالسّجين على سبيل المثال: إن لم يتكيّف مع السّجن سينتهي؛ إذ لا مقاومة (لا قوّة).

فالتكيّف موائمة نفسية بين الأفراد والجماعات والبيئة التي تحيطهم، بعد القبول الضمني بتقديم التنازلات، أو القبول بالتغيير بما يتناسب مع ضرورة التكيّف، فالسجين الذي في بداية أمره سجين لا يمكنه التكيّف مع السّجن، ولكن بمرور الزّمن يتكيّف معه كأمر واقع لا مفرّ منه، غير أنَّه مهما تحقّق له من تكيف مع السّجن والسجّانين، لا يمكنه التوافق معهم ولا مع السّجن، وهنا، الفرق كبير بين التكيّف الذي لا يتمّ إلّا بتنازلات وعن ضرورة، والتوافق الذي لا يتمّ إلّا عن رغبة وإرادة؛ فالذين بأسباب الضّرورة يتحقّق لهم تكيّف مع السّجن، لا يمكن أن يكون لهم حنين إليه بعد أن يقضوا مُدد الأحكام الصادرة بشأنهم؛ ولذلك فالتكيّف ميل يدفع تجاه تعديل السّلوك، أو تغيير اتجاهه وفقا لِما هو كائن.

والتكيّف كما يحدث مع الأمر السّالب يحدث مع الأمر الموجب، ولكن لا يحدث إلّا للضّرورة؛ ممّا يجعله بين ظاهرٍ وكامنٍ؛ ولذا فعندما

تنقلب المفاهيم تنقلب السّلوكيّات، ويصبح التكيف الظّاهر لا يعبّر عن الكامن، ومن ثمّ، يصبح الكامن متربصا بفرص النّجاة وقد ينتهزها.

إذن: فالتكيّف لن يكون غاية ما دام قائمًا على تقديم التنازلات، بل الغاية تحقيق التوازن في عمليَّة تفضي إلى المحافظة على النّوع أو الحياة الخاصّة.

وهذا ما حدث مع بائع الخضراوات: (التشيكي) الذي كتب على المحل المرخّص له ببيع الخضراوات فيه: (يا عمال العالم اتحدوا) وهو لم يعرف الأبعاد الفكرية لهذه المقولة، فإنَّه يعرف أنَّ كتابة هذه المقولة قد تقيه شرّ الحكومة وظلمها؛ من أجل أن يبيع خضرواته بسلام، وهو غير مكترث بمضمونها الفكري، وهذا يدلّ على شعور داخلي مفاده:

أيّها المشترون أرجو المعذرة، أنا أعرف أنَّ معظمكم مثلى لا يحبّ هذا الشّعار، ولكن الضّرورة الحياتية جعلتني أضعه على واجهة محلي؛ لكيلا ترفعوا رؤوسكم إليه مرّة ثانيه؛ ولكي تتمكّنوا من اختيار أحسن الخضراوات، وعليكم أن تراعوا ظروفي، لقد وضعته من أجل أن يقال: إنّي صادق، ومن أجل سلامتي وسلامتكم، وأعرف أنَّ أكثركم يعارضه سرّا، ولكن عليكم أن تعرفوا أنَّ كتابتي هذه تعني: معارضتي العلنية له؛ من أجل أن أكون صادقًا معكم، وكاذبًا مع الحكومة التي يرضيها ما لا يرضيكم[123].

[123] الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي، المجلد الثاني، الطبعة الأولى، 1988م، ص 26.

ومع أنَّ التكيّف عمليَّة تأقلم من أجل البقاء، وفيه من التنازلات ما فيه عن بعض الصّفات، فإنَّه لا يعدُّ ضعفًا ووهنًا، بل الضّعف والوهن يلحق من لا يستطيع تأقلما مع البيئات المختلفة؛ فينتهي بلا ثمن.

ولذلك؛ استنتج داروين ما عُرف باسم: قانون الانتخاب الطبيعي، فمتى ما يوجد تنازع على البقاء بين الأفراد، واختلاف وتمايز في الصّفات، فأنَّ هذا سيؤدّي إلى أنَّ الكائنات التي تتمتع بصفات تميزها عن غيرها كسرعة الحركة أو قوّة العضلات أو طول الرّقبة كالزّرافة مثلًا، ستكون لها الفرصة الأفضل للبقاء، وإنتاج مواليد جديدة، في الوقت الذي يفنى فيه خصومها ويزولون. ومن ثمّ، يرى أنَّ التنازع على البقاء له تأثير انتخابي في إزالة غير الصّالح من الأفراد، وفي الاحتفاظ بالصّالح منها؛ وحيثما يبقى الصّالح حيًّا ويتكاثر، يهلك الضّعيف[124].

[124] تشارلز داروين، أصل الأنواع، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ص 538 . 571.

النّشوء

بداية ونهاية

النّشوء بداية هو: إيجاد الشيء من الشيء ونموّه خلقًا معجزًا، كما نشأت الأزواج كلّها ممّا نعلم وما لا نعلم: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}[125].

أمَّا النّشوء نهاية؛ فهو خلق جديد وإحياء معجز لمن سبق وأن كانت له نشأة: {ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ}[126]؛ فالبعث نهاية للوجود المؤقت، ونشوء لحياة دائمة.

ولذلك؛ فالنّشوء بداية ونهاية هو نشوء وجودي علائقي؛ فحيثما نشأ الزّمن نشأت البداية وكانت الحركة، وحيثما انعدم الزّمن كانت النّهاية، ولا نشوء لبداية أو نهاية إلّا في حيّز، سواء أكان وجود شيء أم لا شيء.

فالبداية توقيت زمني لشيء يُخلق أو يُفعل؛ ممّا يجعل البداية نقطة القياس الأولى للتمدّد طولا وعرضا وارتفاعا ووزنا وسرعة، ويجعل نقطة النّهاية قاطعة؛ إذ لا نشوء ولا تمدّد ولا انكماش ولا سرعة من بعدها.

فالبداية والنّهاية علامتان لحصر الوجود المتّسع وعدّه عدّا، فلا شيء قبل البداية إلّا المبدئ، ولا شيء بعد النّهاية إلّا الآخر المنهي.

---

[125] يس: 36.

[126] المؤمنون: 15، 16.

ولأنَّ البداية والنّهاية لا تنشأ إلّا في حيّزٍ؛ فهي تحوط الأشياء وجودًا في الزّمان والمكان؛ حيث كلّ شيء خُلق، أو سيخلق لا يكون محصورا إلّا بين قوسيها.

ومع أنَّ البداية تُعدُّ نقطة الصّعوبة، فإنَّها في النّهاية لا تعدُّ نقطة الاستحالة؛ فالتعلّم بداية تواجهه المصاعب كما تواجه عمليَّة التذكّر والتدبّر والتفكّر والإبداع، ولكن نهاية الأهداف تنجز، والأغراض تتحقّق، والغايات تُبلغ.

وعليه:

فمثلما لكلّ شيء مواقيته، فأنَّ لكلّ شيء توقيته بداية ونهاية، ولا شيء يبدأ أو ينتهي إلّا ولحظته قد بدأت تمدّدًا أو انكماشًا، أو أنَّ نهايته قد بدأت صعودًا أو هبوطًا: (متوقَّع أو غير متوقَّع).

فبداية الكون كما يعتقد علماء الفيزياء قد بدأت انفجارا عظيمًا، ولكن وإن اختلفنا، فلا اختلاف معهم على أنَّ لكلّ شيء بداية ونهاية، أمَّا كيف تكون النّهاية؟ ومتى؟ فهذه علم تهيمن عليه الفرضيَّات لا الحقائق.

وإلّا هل هناك من يستطيع إدراك النّهاية الكونية والكون يتمدّد متسارعا، في مقابل قدرات محدودة، وعلم سرعته لا تواكب سرعة التمدّد الكوني؟

ومع أنَّ علماء الفيزياء يرون الكون قد بدأ انفجارا، ولا خالق له، فإنَّ العقل يطرح تساؤلات بأسباب الحيرة التي تولّدت مِن حكمهم هذا؛

فهل يعقل أن يخلق المخلوق لو لم يكن من ورائه خالق؟ فإن أجزنا هذا القول كما يعتقد البعض؛ فعلينا بنفي خلقنا للأشياء التي صنعت بأيدينا، وإلّا ما هي المبررات التي تجيز خلقنا للأشياء صناعة ولا تجيز خلق ما هو أعظم من خلقنا بأيدينا؟ وعلينا أن نتساءل:

لماذا لم نستطع معرفة سرعة حركة الكون المتسارع في تمدّده؟ أي: لو لم يكن من وراء الكون مسيّرا له بالقوّة المطلقة؛ فهل يمكن له أن يسيّر وهو على هذه الضخامة المستمرّة في التضخّم؟ وإذا كانت الإجابة أنَّ الكون يتمدّد ويُسيّر بقوّة الانفجار العظيم؛ فمن الذي فجّر ذلك المنفجر حتى أصبح الانفجار بداية الخلق الكوني المتسارع تمدّدا؟ أم إنَّ الانفجار لا يزيد عن كونه صدفة لا غير؟ وحتى إن كان مصادفة؛ فهل يمكن أن تحدث المصادفات لو لم يكن من ورائها مدبّر؟

وبما إنَّ الحياة بداية، والموت من بعدها يلاحقها؛ فمن الذي يحيي ويميت؟ أم إنَّ الكون هو الذي يحيي ويميت؟ وكيف له أن يحيي ويميت وكلّ ما فيه يلاحقه الموت، ومن بعده يصبح الكون برمّته معرّضًا للنّهاية تجمّدا، أو انكماشا، أو انفجارا، ثمّ رتقا من جديد؟

ومع ذلك يجيب البعض بقوله:

لا داعي لطرح هذه التساؤلات؛ ولا داعي حتّى لقبول تساؤل منها؛ فإن قبلنا سؤالًا واحدًا، فقد ننجرّ إلى قبول مئات التساؤلات؛ ولهذا بالنّسبة لهم بدأ الكون والوجود من ذلك الانفجار، ولا داعي لأيّ أسئلة عمّا قبله.

أمَّا نحن؛ فنقول:

تكفينا هذه الإجابة، ومن يرى غير ذلك؛ فمن حقّه أن يتساءل، ولكن لن يجد إجابة غير هذه الإجابة، حتّى وإن أعاد طرح السؤال:

كيف تكون البداية من لا شيء والانفجار العظيم من ذرّة؟

قال الفيزيائيون:

إنَّ الكون بداية قد خُلق من لا شيء، ونحن قَبِلنا بذلك إن كان مقصدهم أنَّ اللاشيء هو ذلك المتناهي في الدّقة والصّغر، ولكن كيف لنا بقبول غيره إن كان مقصدهم باللاشيء (لا وجود)؟ وهم في هذا المثال كمن يقول: صُنعت المصنوعات (كلّ المصنوعات التقنية والتقليدية) من غير مواد خام، ومن غير مواد مصنّعة، ومن غير صانع. ومن يقبل بهذا أو يصدّقه فلا شكّ أنَّه يقبل بقولهم: إنَّ الكون قد خُلق من لا شيء ومن غير خالق.

نعم إنَّهم بحثوا؛ فعرفوا؛ فأصابوا، وفي المقابل: نعم إنَّهم بحثوا؛ فأخطأوا، ومن بين هذا وذاك وجب البحث المتّصل ولا انقطاع؛ حتّى يعلم الجميع ويتبيّن الحقائق دليلًا وشواهد.

ومن ثمّ؛ فلا اختلاف على أنَّ الوجود أوّلًا، ثمّ الموت ثانيًا، وثالثًا من بعد الموت عدم، ورابعًا من بعده موت الموت، وخامسًا إحياء وإبقاء إذ: (لا نهاية)، أي: في عالم الوجود الدنيوي لكلّ بداية نهاية، ولكن في عالم الوجود الباقي؛ فلا نهاية لبداية (بقاء بلا نهاية).

إذن: فالبداية كان الوجود كونًا مُرتقًا، ثمّ فُتق فأصبح أكوانًا، ونهاية سَتُرتق الأكوان كونًا باقيًا، وذلك عندما يُرتق الزّمان مع المكان ولا ينفصلان نهاية، وهذا يعني: أنَّ للزّمان الدّنيوي نهاية، وأنَّ للزّمان الآخر بداية بلا نهاية؛ حيث تبقى الحياة إعجازا عند لحظة البداية الدّائمة.

ومن خلال تفسيرنا للوجود الكوني المتمدّد بقوّة الطّاقة الهائلة، نعتقد أنَّ حيويّته والحرارة المصاحبة له ستؤولان به إلى الانكماش بعد فتور من بعده برودة، تجعله عائدًا إلى أماكن رتقه، فيصبح وكأنَّه لم يُفتق من قبل.

ولهذا؛ فرؤية العلماء تميل إلى وضع يُسمى (التجمّد الكبير)؛ حيث يستمرّ الكون في التّوسع، وفي النّهاية ينمو إلى حدّ يصبح معه المتوافر من الغازات خفيفًا لا يكفي لتكوين نجوم، فيبرد إلى نقطة يفقد عندها الوقت كلّ معنى؛ إذ لا شيء يحدث بعد ذلك[127].

ومن ثمّ؛ فالانكماش قوّة هائلة تطوي ذلك التمدّد الهائل الذي تسارع حتى النّهاية، التي لا نهاية من بعدها: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا أنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}[128].

---

[127] الأنباء، من الانفجار الكبير إلى التجمّد الكبير، كيف نشأ الكون، الأربعاء 22 أغسطس 2012م.

[127] الأنبياء 104.

ومع أنَّ البداية بداية وجود، فإنَّ كيفيَّة البداية الوجوديَّة لا أحد يعلمها سوى التحدّث عن ذلك الانفجار العظيم الذي يعتقد البعض أنَّه البداية غير المسبوقة ببداية، ولكن بالنّسبة لنا إن أجزنا وجود الانفجار العظيم فلا نجيزه إلّا نهاية لذلك المنفجر، وليس بداية غير مسبوقة ببداية.

ومع أنَّ الوجود الكوني لم تسبقه أيدٍ خلّاقة، فإنَّه كان مسبوقًا بخالق الأيدي؛ ولذلك كان خلق الكون أمرا مفعولا بداية ونهاية، ولم يكن بأمرٍ يُفعل؛ وهذا الأمر لا يعني أنَّ الأمر المفعول قد حدث وانتهى؛ ولكنَّه يعني: أنَّ الخلّاق لا يتوقّف عن الخلق.

وبما إنَّ بداية الكون كما يرها المنظّر الفيزيائي لورنس كراوس Laurence Krauss من اللاشيء كما جاء في كتابه: Universe from nothing إذن: فلا بدّ من إعادة التساؤل:

كيف تكون البداية من اللاشيء والكون متفجّر من ذرة؟ وإذا عَدَدْنَا الانفجار العظيم هو بداية الوجود الكوني؛ فإذن: الكون بدايته انفجار. وفي المقابل إذا عددنا الوجود قد خُلق وجاء من بعده نشوء، فَلِمَ لا تكون النّهاية هي: الرّتق من بعد الانفتاق؟

ولا خلاف على أنَّ كلّ ما نعرفه وما لا نعرفه قد ظهر إلى الوجود بالانفجار الكبير، أو الانفتاق العظيم، ولا خلاف مع أدلة تؤكّد نهاية

الكون، كما جاء في قول العلماء الأمريكان: "إنَّنا سائرون نحو نهايةٍ لا تقل إثارة عن البداية"[129].

فالبداية سواء أكانت تمدّدا أم انكماشًا: (في الاتجاه الموجب، أم في الاتجاه السّالب) فلا بدّ لها من نهاية؛ ولذلك فيمكننا أن نعد ما نشاء من الأعداد للخلف (سلبًا) كما نعدّها للأمام (إيجابًا)؛ فالعدّ للأمام يوصل إلى رقمٍ موجبٍ كبيرٍ جدًّا، والعدُّ إلى الخلف يوصل إلى رقمٍ سالبٍ كبيرٍ جدًا، وفي كلتا الحالتين لكلّ شيء بداية ونهاية حتى وإن قصرت قدراتنا عن التوقّف عندها.

فالكون بما فيه من كواكب ونجوم وفراغ وخلاء وطاقة ومجرّات، له بداية (انفجار عظيم) أو (انفتاق عظيم) وهذه هي النّقطة الصّفرية التي بدأ تمدّد الأكوان منها، والتي سيعود إليها الكون منكمشًا؛ حيث انتهاؤه إلى الحجم الذي منه فُتق وبدأ امتدادًا. وهذا التفسير قد ذكّرني بحديث جرى بيني وبين أحد أساتذة الفلسفة حينما: سألته أين مكان الإقامة؟

قال: مؤقتا في مدينة طرابلس.

وأين تكون الإقامة الدّائمة؟

في الخرطوم.

ألا تعتقد أنَّ وجودك مؤقتٌ أينما كنت؟

---

129 el of the Converse Reborn Endlessly in New Modsmos, www.nationalgeographic.com, April 25, 2002 p 127.

قال: نعم لكلّ بداية نهاية. لقد جئت من الخرطوم وسأعود إليه.

قلت: إن لم تحدث (لن).

نعم، إنَّ (لن) تحدث رغمًا عنَّا، وعن حساباتنا وخططنا؛ ولذا فقد ترتبط النّهاية بمكان البداية، وقد تنفصل عنه.

فقلت:

معظم الطيور لا تعود إلى أعشاشها بعد أن تغادرها؛ إلّا الكون سيعود إلى عُشّه بعد أن فارقه انفتاقًا: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا أنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}[130].

هل تعتقد يقينا كما أعتقد أنَّ لكلّ وجودٍ نهاية؟

نعم، لا نهاية إلّا لوجودٍ.

الآن فهمت بحقّ، لا بدّ أن يكون الوجود أوَّلًا، ثمّ العدم ثانيًا.

قلت: لا. العدم ثالثًا.

فقال: وماذا ثانيًا؟

الموت، ثمّ العدم.

إذن: فالبعث رابعًا.

فقلت لا: بل موت الموت رابعًا، ثمّ البعث خامسًا.

[130] الأنبياء: 104.

وماذا سادسًا؟

نهاية النّهاية.

فقال نعم: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}[131].

ثمّ سأل:

وما الفرق بين موت الموت، ونهاية النّهاية؟

موت الموت؛ من أجل الحياة، أمّا نهاية النّهاية؛ فمن أجل البقاء الذي يحتوي الزّمان.

فقال: إذن: الذين يعتقدون في وجود اللامتناهي رياضيًّا، اعتقادهم سراب، ثمّ سأل:

وهل تعتقد أنَّ اللامتناهي موجود؟

مع أنَّ أهل الرّياضيات عندما يعجزون عن بلوغ النّهايات؛ فلا يرون إلّا ما لا نهاية، فإنَّ المنطق العلمي وبخاصّة الرّياضي منه، لا يعترف بالمسلّمات إلّا بعد إثبات؛ ولأنّني لا أرى مالا نهاية في دائرة الممكن. إذن: فكيف لهم بفرضية اللانهاية في الوقت الذي فيه علماء الفيزياء والفلك قد أجمعوا علميًّا على وجود النّهاية: (انكماشًا أم تجمّدًا أم انفجارا؟)

[131] الرّحمن: 26، 27.

ومع ذلك؛ فإنْ جعل أهل المنطق الرّياضي أنَّ اللامتناهي مسلّمات، فإنَّهم قد اعترفوا بأنَّه مثبت، وبالتالي فإن كان مثبتًا كان موجودًا، وإن كان موجودًا؛ فله بداية ونهاية؛ ومن ثمّ؛ فلن يكون اللامتناهي إلّا افتراضًا رياضيًّا: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[132].

إذن: فلا شيء على أرض الوجود إلّا وله بدية ونهاية، سواء تمكّنَّا من الوقوف عندها، أم إنَّ قدراتنا الإدراكية قد قصرت عنها؛ ولذلك فللنّهار بداية ونهاية، ولليل بداية ونهاية، وللعمر بداية ونهاية، وللتفكير بداية ونهاية، وللوجود كلّه بداية ونهاية. ومن هنا فلا تستطيع قدراتنا العقليَّة المحدودة أن تكتشف النّهايات الواسعة.

ولهذا؛ فاللانهاية لا وجود لها إلّا افتراضًا، ولا توجد معادلات رياضيَّة تثبتها تجربة أو مشاهدة أو ملاحظة، أو قياسًا، فعلى سبيل المثال: إذا كان أيّ كم هو نتيجة حاصل الجمع، أو الطرح، أو القسمة، أو الضرب، أو غيرها من المسائل الحسابية، فلا بدّ من الحصول على نتيجة حسابية، وهنا؛ فلا مكان بين العمليات الحسابية للامتناهي إلّا افتراضًا. وإلّا هل هناك كم حسابي يقبل القسمة والجمع والطّرح، ولم تكن له نتيجة (نهاية)؟

ومن ثمّ؛ فلا وجود للانهاية إلّا افتراضا، مثل الافتراض الذي يقول: (يظل المستقيم مستقيما مهما امتدّ)، ولكن هذا الافتراض على أرض الواقع لا مصادق له؛ لأنَّ المستقيم إذا امتدّ على الأرض إلى ما

---

[132] الإسراء: 85.

يمكن أن يمتدّ إليه؛ فلا يمكن أن يكون مستقيما، بل سيرسم على الأرض دائرة، وهكذا حال أي مستقيم يبتدئ على الأرض بنقطة وينتهي عند نقطة.

وعليه:

وفقا للمنطق العلمي فإنَّ لكلّ بداية نهاية، والذي لا بداية ولا نهاية له لا يمكن أن يقبل القسمة ولا الجمع ولا الطرح ولا يؤدّي إلى نتائج علميّة محدّدة، ومن ثمّ؛ فليس له منتصف، أو مركز يحدّد نزوعه وتشتته أو تمركزه؛ ممّا يجعله معدوم التعامل الحسابي.

وبما إنَّ لكلّ شيء بداية؛ واللامتناهي شيء، إذن: فكيف لا تكون له نهاية حتى وإن كنّا نجهلها؛ ولذا فإنْ حاول من يحاول التعامل مع اللانهاية رياضيا؛ فلن يجد له معامل حسابي، وفي المقابل يجده في كلّ ما يقاس بداية ونهاية، ومن ثمّ، تكون البداية والنّهاية من أسس التعامل الحسابي القابل للقياس.

وبناء على ذلك؛ فهل للزّمان بداية ونهاية؟

نعم، له بداية ونهاية، حتى وإن لم نعرف تاريخ بدايته ونهايته؛ ذلك لأنّنا نعرف من الزّمان ما هو ماض، وما هو حاضر، وما هو مستقبل؛ ممّا يدلّ على قبول الزّمان للقسمة والجمع والطرح: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ}[133].

[133] سورة يونس: 45.

وعليه:

بما أنَّ النّهار جزء من اليوم، والسّاعة جزء من النّهار، إذن: ألا يكون النّهار واليوم جزآن من الزّمن المتناهي؟ وإذا كان الزّمان متناه؛ فما هو الشيء المتبقي ليوصف بما لا نهاية؟ {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ أنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ}[134]؛ فالزّمان أيّامًا وأشهرًا وأعوامًا، مثله مثل الأعداد التي مهما كبرت فأنَّها لا تبتدئ إلّا بالواحد الكمّي ولا تنتهي عددا وكمًّا إلّا به.

نشوء النِّهاية العدديّة:

تنشأ الأعداد بوجود الواحد سواء أكان كليًّا، أم جزئيًّا، أم متجزئًا، وهو الذي به ينتهي المعدود أو المقاس محيطا أو مساحة أو حجمًا، أو وزنًا، وكلّ شيء يبدأ بواحد لا بدّ وأن ينتهي به، وبالتالي فإنْ لم نصل بقدراتنا العقلية إلى معرفة وجود النّهاية العددية، فإنَّ ذلك لا يعني إثبات عدم وجودها، بل إنَّه دليل على قصور قدراتنا العقلية. أمَّا مالا نهاية؛ فهو الذي لا يمكن مشاهدته ثباتا أو سكونًا، ومتى ما تمكنَّا من معرفته يصبح متناهيًا.

فالأعداد تستمرّ سلبًا وإيجابًا في تضاعف إلى النّهاية سواء أكانت نهاية الشيء المعدود، أم نهاية الذي يقوم بفعل العدّ؛ فعلى سبيل المثال: إذا اتّجه أحد المتخصّصين في دراسة الرّياضيات من نقطة معينة على الأرض في اتجاه مستقيم؛ فإنَّه بالضّرورة سيصل إلى النّهاية، ولكن لو

[134] الأعراف: 187.

انحرف قليلا، أو كثيرا عن خط سيره على الأرض يسارًا أو يمينًا؛ فإنَّه سيجد نفسه مستمرّا في اتجاهه، دون أن يمرّ بنقطة النّهاية، وكأنَّ الأرض ليست مستديرة، وهكذا يتكرّر الدوران على الأرض إذا لم يتعرّف على نقطة البداية التي وضعها أو انطلق منها، وفي هذه الحالة قد يحكم على الأرض بما لا نهاية، مع علمه المسبق أنَّها المتناهية.

ومن ثمّ، أتساءل:

هل الأشياء والمواضيع في دوائرها المتناهية، يمكن أن تكون غير متناهية؟

لا يمكن.

والمثال على ذلك: إذا قمنا بإحصاء تعداد سكّان العالم، وحيواناته، وطيوره، وأسماكه، ونباتاته، وحتى حبّات رمله، ورذاذ مياهه؛ فلابدّ أن نصل إلى النّهاية؛ لكون العالم محصورا على الكرة الأرضية المتناهية مساحة وحجما ومحيطا، مع العلم أنَّ بعض الذين سيشاركون في التعداد قد ينتهون قبل أن يعرفوا النّهاية.

إذن: كيف تقبل عقولنا أنَّ الشيء المحصور بين البداية والنّهاية متناه، وأنَّ المتجزئ منه يتمدّد إلى مالا نهاية؟ فالأرض على سبيل المثال: التي هي متناهية ألا يكون كلّ ما على ظهرها متناهٍ؟

وهكذا هو حال كلّ بداية ونهاية؛ فالرّصاصة المنطلقة من البندقية لا يمكن أن تكون انطلاقتها إلّا بين بداية ونهاية، ولكن مع ذلك يرى البعض عندما تتجزأ المسافة المقطوعة إلى أجزاء، تتجزأ هي الأخرى إلى

ما لا نهاية؛ ولذلك أطلقوا على المسافة المحصورة بين (1، 2) باللانهاية، وهكذا بين جميع الأعداد؛ ولذلك لا يمكن الانتقال من الرّقم (1) إلى الرّقم (2) إلّا تقريبًا حسابيًّا؛ وذلك بأسباب وجود الكسور الحسابيَّة التي تأسّست على فرضية اللانهاية.

وحتى لا يتوه تفكيرنا بين تجاذبات المتناهي وغير المتناهي؛ فينبغي التمييز بين المتعرّف عليه، وغير المتعرّف عليه؛ حتى يتمكّن العقل من تثبيت صفات الأشياء بداية ونهاية.

المتعرّف عليه:

المتعرّف عليه، هو: كلّ ما تمّت معرفته وإدراكه بداية ونهاية، وفي المقابل العقل (المتعرّف به) على ذلك الموضوع (المتعرّف عليه) لن يستفيد جديدا كون الموضوع لا يضيف له شيئًا؛ ولهذا فإعادة التعرّف لا تضيف جديدا وإن أسهمت في تثبيت المعلومة.

غير المتعرّف عليه:

عندما يتمكّن العقل من البحث والتقصّي العلمي يُمكِنه التعرّف على الجديد بالمتعرّف به (العقل) في حدود القدرات والاستعدادات كبداية ونهاية إدراكية، وغير المتعرّف عليه، هو: الذي لم يُكتشف بعد حتى يعد معرفة علمية؛ ولهذا يعد غير المتعرّف عليه بالنّسبة للمدركات العقلية مجهولا إلى حين، وعندما يتمّ التعرّف على غير المتعرّف عليه، يكتسب العقل معرفة جديدة تضاف لمعارف الإنسان السّابقة.

ومن هنا؛ فكلّ معلومة لم يتمّ التعرّف عليها بعد، وهي في دائرة الممكن، فلا استحالة بينها وبين التعرّف العقلي، وهذا الأمر يجعل المتعرّف عليه (الموضوع) تحت قبضة المتعرّف به (العقل) إلى النّهاية. ومن ثمّ؛ فكلّ معلومة يعجز الإنسان عن معرفتها تندرج تحت غطاء (غير المتعرّف عليه)؛ وذلك لقصور العقل عن إدراكها والوقوف عند نهايتها. وهكذا فكلّ شيء عرفناه يكون هو (المتعرّف عليه)، وكلّ شيء على قيد الوجود ولم نتمكّن من التعرّف عليه يوصف بـ(غير المتعرّف عليه)؛ كونه موجودًا أو متاحًا إلى حين التمكّن من معرفته بداية ونهاية؛ ولذا فمتى ما تهيأت عقولنا للمعرفة تهيأت المعرفة إلينا.

الواحد البداية والنّهاية:

لا نبتة إلّا ولها بداية، بذرة واحدة، ثانية واحدة، يوم واحد، عمر واحد، وكذلك، لا نمو لبذرة إلّا بين بداية ونهاية، طولًا وارتفاعًا وعرضًا، وهكذا تبتدئ الأعداد بواحد، وتختتم به نهاية، ومن هنا؛ فجميع الأعداد هي مواليد الواحد، فلولا الواحد ما عرفنا الاثنين اللذين يتكونان من: (1 + 1) والواحد دائما مستقل عن كلّ واحد من حيث إنَّه واحد، ومن تكرار الواحد وتجمّعه وتشتته تتكوّن الأعداد والأرقام، أحادية: (1، 1، 1)، وأي عدد لا يمكن أن يكون هو المقصود إذا سحب منه الواحد، أو أضيف إليه، فعلى سبيل المثال: إذا كان العدد المقصود هو: (1، 2، 3 ، 4، 5، 6) فكل هذه الأعداد لا يمكن أن تتكون إلّا بالواحد، الذي إذا سحب من كلّ منها تصبح الأعداد: (0، 1، 2، 3، 4، 5)؛ وهكذا تنتهي هذه الأعداد وغيرها ويبقى الواحد، ومن ثمّ؛ فإذا

انتهى الواحد كعدد انتهت الموجودات، وكانت النّهاية: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}[135].

إذن: فبالواحد عددًا تكون البداية، وكذلك به عددا تكون النّهاية، فالرّقم (8) بدايته واحد، ويستمرّ الواحد في تزايد إلى أن يصل إلى العدد أو الرّقم (7) الذي عندما يضاف إليه (1) يصبح (8) وهذا يعني: أنَّ الواحد المضاف إلى العدد (7) كان متمّما للعدد (8) ونهاية له؛ ولذلك فالواحد يكون البداية والنّهاية بالنّسبة للعدد (8) وإلى أيِّ عددٍ وكمٍّ.

وهكذا؛ فكلّ ما له بداية ونهاية له منتصف، ويتجزأ إلى نقاط؛ كونه المتكوّن منها: (من النقاط)؛ فالمستقيم مهما امتدّ فبدايته نقطة، ونهايته نقطة، وتقترب نقاط البداية والنهاية في حالتين:

الحالة الموجبة:

وهي: كلّما زاد طول الخط المستقيم في الاتجاه الموجب، اقترب من نقطة البداية التي انطلق منها، وفي هذه الحالة كمن يمدّ ذراعه وأصبعه إلى الأمام وكأنَّه يشير بهما إلى شيء ما؛ فقد يجد أصبعه يلامس خلفيَّة رأسه، أي: إنَّ المستقيم إذا امتدّ على الأرض لا بدّ وأن يرسم دائرة تسع الأرض ومن عليها.

الحالة السّالبة:

---

[135] غافر 16.

وهي: كلّما نقص طول المستقيم المرسوم في الاتجاه السّالب (انكماشا) ابتعد عن نقطة النّهاية المأمولة، واقترب من نقطة البداية التي انطلق منها.

ولذلك؛ فكلّ الأعداد تزيد وتنقص وتتكرّر بالواحد، وهي لا تبتدئ ولا تنتهي إلّا به؛ فالواحد عددا هو: الحقيقة التي لا تتمركز الجموع إلّا به، ولا تتشتت إلّا به، ومن ثمّ علينا أن نفرّق بين: (العدد، والمعدود، والعاد)؟

فالعدد هو المقدار وجمعه أعداد، وهو المجرّد من التمييز، فعندما أكتب على سبيل المثال: 1، 2، 3، 4، 5، 6، أكتب أعدادًا، وهذه الأعداد عندما تكتب على كمّيات أو كائنات تميّز أرقاما وتصبح هذه الكميَّات أو الكائنات هي المعدودة، ويكون الذي أحصاها عددًا هو العاد؛ ولذا فمتى ما قلت: (أنا العاد) تجد نفسك معدودا من قبل غيرك، وهنا تكمن حقيقة مفادها:

هناك من يُعد وهو لا يُعد: (يُعدّ كمّا ولا يعدّ قيمة)؛ كونه لا يساوي إلّا صفرًا من حيث الأهميَّة الإنتاجيَّة أو القيميَّة، وفي المقابل هناك من لا يعدّ في الوقت الذي هو فيه يساوي المفاجأة: (اللا متوقَّع)؛ ولذلك فليس كلّ ما يعد، يعد، ولا كلّ ما لم يعد، لا يعد.

ومن ثمّ؛ فقد يتطابق مفهوم العاد والمعدود عندما تتساوى القيم، وقد لا يتطابق مفهومهما وإن تطابقا عددًا.

وبما أنَّ (العدد، والعاد، والمعدود) جميعهم منتهون، إذن: فكيف يؤدّي المتناهي إلى مالا نهاية؟ أي: إذا كان (العاد والمعدود والعدد) منتهون سواء بالجمع أم الطرح أو بأيّة معاملة رياضيَّة وإحصائيَّة، إذن: المتناهي لا يؤدّي إلّا إلى متناهٍ.

الواحد كمّا وصورة:

خُلق الواحد نشوءًا مستقلًّا عن أيّ واحد، فآدم وزوجه خلقا من التّراب خلقًا أحاديًّا مستقلًّا: (ذكرا وأنثى)، وكذلك بقيَّة الأزواج خُلقت أحاديَّة مستقلّة (ذكورًا وإناثًا) على تراب الأرض المرتقة (قبل فتقها سماوات وأراضين)، ولكلّ كون هيئته وشكله الذي خُلق عليه، ولكن ليس لكلّ شيء صورة أو شكلًا، إلّا الذي يتضمّن الواحد في مفهومه أو دلالته، مثل: الأرض، والذئب، والدّجاجة، والسّمكة، والشّجرة، والجبل، وغيرها كثير ممّا يحمل في مضمونه صورة أو شكلا يدلّ عليه دلالة مباشرة بمجرد الاستماع للكلمة؛ ولهذا فالكلمات الدّالة على الصّور والأشكال ترسم؛ فالكلمات: جبل، ورجل، ونخلة؛ وشلال ترسم في العقل بمجرد الاستماع للكلمة التي تحملها، ومن ثمّ؛ فكلّ الكلمات التي تحمل في مفهومها صورة أو شكلا يكون تعليمها أيسر من تلك التي تحمل معنىً مجرَّدًا؛ ولذلك فهي تدرك كما هي صورة وشكلًا ودلالة ومعنى؛ فعندما نقول: (قلم) الكلّ يدركه صورة، وعندما نقول: (إنسان) الكلّ يدركه صورة، وعندما نقول: (مثلث أو دائرة أو متوازي الأضلاع) فالكلّ يدركها أشكالا، وهذا الأمر يجعل الكم (العددي) كمّا متناهيا، أي: إنَّ الأعداد وإن كثرت فهي تتناهى كمّا وصورة وشكلا، ومن ثمّ؛

فكلّ ما يحتوى مفهومه على الواحد لا بدّ وأن تكون له صورةً أو شكلٌ؛ فيرسم، إلّا الواحد الذي خلق الواحد، ليس له صورة ولا شكلٌ، ولا بدايةٌ ولا نهايةٌ، ومن ثمّ؛ فلا يُرسم ولا يحاط.

ومع أنَّ للصّورة دلالة ومعنى، فإنَّه يظل للكيفيَّة التي عليها الصّورة أو الشّكل دلالة أوسع، وبالتالي فإنَّ التوقّف عند حدود التعرّف على الصّور دون التجاوز إلى معرفة الكيفيَّة التي هي عليها، لا يُمكِّن أصحابه من التأمّل والمعرفة الواسعة: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}[136]. ولمعرفة الكيفيَّة ينبغي الأخذ بوسيلة الملاحظة الإدراكيَّة دون القصور على وسيلة المشاهدة التي تقتصر على الرّؤية البصريّة.

ومع أنَّ وسيلة المشاهدة ذات أهمية عالية في كشف الحقائق الظّاهرة؛ فالملاحظة ذات أهمية عالية في كشف الحقائق الباطنة، وكذلك للحواس أهمية معرفيّة: (لمسا وذوقا وسمعا)، ومع ذلك؛ فالأخطاء قد تتعلّق بها، فعلى سبيل المثال:

مجموعة من الأصدقاء العرب وياباني، يعملون في إحدى الشّركات العاملة في الصحاري العربيَّة، ومن باب المزاح حاولوا اختبار الذّكاء الياباني في التعرّف على الأشياء عن طريق حاسّة اللمس، فأحضروا بعيرًا لا يتجاوز عمره أيّاما، وأحاطوه بالقماش وهو في وضع البروك؛ بحيث لا يخضع جزء منه للمشاهدة، وربطوا عيني الرّجل الياباني بقطعة قماش،

[136] الغاشية: 17 . 20.

وطلبوا منه أن يتعرّف على الجسم بحاسة اللمس (باليدين)، وسُمح له بذلك إلى أن قال لهم: إنَّه قد عرف هذا الجسم؛ فسألوه:

وما هو؟

فأجابهم: أنَّه إبريق شاي كبير إن لم يكن إبريق قهوة.

وكذلك للحواس خدعتها، والتي يحضرني منها ما قام به ذلك الطبيب الذي أحضر بولا سكريًّا وغمس أحد أصابعه فيه ليتذوّقه أمام الطّلبة الدارسين بكلية الطّبّ، وطلب منهم أن يفعلوا ما فعل، ليتذوقوه واحدًا بعد الآخر؛ فقاموا بذلك على مضض، وبعد انتهاء التجربة أجمع الطلبة على أنَّ البول السكّري حلو المذاق؛ فابتسم الطبيب قائلًا:

لقد فعلت ذلك لأعلِّمكم الدقّة في الملاحظة؛ فلو شاهدتموني بعناية، لكان من الممكن لكم ملاحظة ما فعلت، فأنا بداية وضعت الأصبع الأوّل: (الخنصر) في قنينة البول، في حين نهاية وضعت أصبعي الثاني: (السبّابة) في فمي[137]؛ ولذلك خذوا حذركم؛ فالنَّاس لا يلعب بمصائرهم حتى النّهاية.

[137] عبد الباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعي، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1975م، ص 330.

النشوءُ حركةً وفعلًا:

أنَّ تمدّد القوَّة وانكماشها يولّد حركة قابلة للمشاهدة والملاحظة والقياس، سواء أكانت الحركة نموّا من الأرض، أم نمُوًّا عليها: (سعة وحجمًا ووزنًا وطولًا وعرضًا وارتفاعًا).

فالحركة تُعرف من خلال الكلمة التي تحملها دلالة، والتي بها تتجسّد وتتميّز عن غيرها؛ فعلى سبيل المثال: كلمة (انسحاب) بداية تحمل في مفهومها شيئًا من التراجع القابل للملاحظة، ونهاية تدلّ على تخلّ عمّا أخذ بأيِّ صفة ولو كان مؤقّتًا، وكلمة (مقاومة) هي الأخرى تدلّ على ثبات الحركة أو توازنها بين طرفي القوّى المتدافعة، وكذلك كلمة (هجرة) تحمل في مضمونها دلالة الحركة والتمدّد، وستظل كلمة هجرة مجهولة إلى حين تبيان المعنى الدّال عليها؛ فأيّة هجرة أعني؟ هل أعني بكلمة هجرة: هجرة داخلية؟ أم هجرة خارجية؟ أم أعني هجرة الطيور؟ أم إنَّها هجرة أسماك؟ أم أعني هجرة الرّسول صلى الله عليه وسلم من مكّة إلى المدينة؟ أم ماذا؟ فمن هنا وجب التبيان والإيضاح؛ لأجل إتمام المعرفة أو المعلومة؛ ولهذا فالهجرة لا تُرسم، بل الذي يُرسم هم المهاجرون، وهكذا كلمة الزواج هي الأخرى لا يمكن أن ترسم ولا ترتسم، وإلّا هل هناك من يستطيع رسم صورة للزواج؟ لا يمكن؛ ذلك لأنَّ الذي يُرسم هم الأزواج والجماعات المشاركة، وما يصاحبهم من وسائل.

إذن؛ فالحركة قابلة للملاحظة، وغير قابلة للمشاهدة، وإلّا هل هناك من يرى الحركة سواء أكانت حركة تقدّم أم حركة انسحاب، أم كانت حركة من أسفل إلى أعلى أو بالعكس؟

فالحركة لا يمكن مشاهدتها، بل الذي يشاهد هو المتحرّك؛ ولذلك لا أحد يستطيع مشاهدة حركة الطّائرة وهي في قلب السّماء، مع أنَّه يتابع تحرّكها وامتداد اندفاعها، ومن ثمّ؛ فالطائرة تشاهد وحركتها تلاحظ؛ فتدرك إدراكا. وهكذا الهجرة لا يمكن أن تشاهد على الرّغم من أنَّ كلمة هجرة تحمل في مفهومها حركة؛ ولذلك يمكن مشاهدة المهاجرين، وفي المقابل يمكن ملاحظة حركة سيرهم ومعرفة اتجاههم. وإلّا هل هناك من يشاهد الهجرة أو التقدّم أو الانسحاب؟ فمن يقول: إنَّه يشاهدها، ليرينا إن استطاع أن يرسمها؛ لتكون قابلة للمشاهدة.

أمَّا المعنى كمفهوم؛ فقد يرتسم، وقد لا يرتسم، وهو الذي يأتي في المرتبة الثالثة من حيث الاستيعاب والفهم والتعليم، والمعنى الذي يرتسم ولا يُرسم، مثل: البهجة، والسّعادة، والمحبّة، والحزن، والغضب، فهذه الكلمات كلها ذات معانٍ قابلة للارتسام على وجوه من يحسّ بها فرحة، أو ألما، أو حزنا، أو غضبا أو تعبا، ومع أنَّها ترتسم، فإنَّها لا تُرسم، وإلّا هل هناك من يستطيع أن يرسم الابتسامة؟ الابتسامة لا ترسم، بل الذي يرسم هو المبتسم.

وفي المقابل هناك الكلمة المجرّدة التي لا تحمل في مضمونها صورة فترسم، ولا تحمل حركة فتلاحظ، ولا تحمل ردّة فعل فترتسم، إنَّها الكلمة المجرّدة التي تدرك دلالة ومفهوما ومعنى، وهي: كالسّبب، والهدف، والموقف، والدّور، وهذه الكلمات وما يماثلها فهي لا تعلّم إلّا شرحًا وتوضيحًا.

وهكذا؛ فالكلمة المفعولة تحتوي معطيات تنفيذها فيها، وهي تختلف عن الكلمة التي تسبق أداء الفعل أو القيام به؛ فالكلمة المفعولة تستثني الفعل الماضي والمستقبل وتتمركز على الفعل الآن (الحاضر) وكثيرا ما تكون مفاجئة: {إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ}[138]. ومن ثمّ؛ فالكلمة تحتوي فعل ممارستها، والفعل الذي تحمله الكلمة يحمل الكلمة التي تدلّ عليه؛ ولذا فالفعل يسبق الكلمة في الظّروف المفاجئة.

وعندما يسبق الفعل القول، تصبح الكلمة مفعولة، كالزّلزلة التي يفاجأ بها النّاس وتُحدث دمارًا؛ فهي فعل يتحقّق، وفي هذه الحالة الفعل يسبق القول: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا}[139]؛ ولهذا فالزلزلة فعل حدث أوّلا، ثم جاء النّاس من بعد حدوثه يتساءلون:

ما الأمر؟ ماذا حدث؟ (ما لها).

فقيل لهم:

إنّها هزّة أرضيّة: (زلزلة)، وهكذا في حالة الصّواعق التي تصيب ما تصيبه دون سابق إنذار؛ فهي فعل يتحقّق؛ فيأتي النّاس من بعده يتساءلون.

ولذا؛ فإنّ جميع الأشياء والكلمات والأفعال وإن اختلفت مراميها، سواء أكانت ذات صورة، أم ذات حركة، أم ارتسامة، أم تجريدا؛

---

[138] الواقعة: 1، 2.

[139] الزلزلة: 1 . 5.

فلكلٍّ منها بداية ونهاية؛ ولذلك فللصّور والأشكال بداية نشوء ونهاية وجود، وللحركة والارتسامة بداية نشوء ونهاية وجود، وهكذا المجرّد يظل مجرّدا بين بداية نشوء ونهاية وجود.

وعليه:

فالنّشوء بداية ونهاية خَلقا مُعجزٍ يخلق ممّا خلق، وفي المقابل الخَلق خُلق من لا شيء؛ فالنّشوء لو لم يسبقه الخَلق ما كان نشوءا، مثل النّبات لو لم تكن الأرض ما نشأ نباتًا، ولو لم تكن ما نشأ آدم وزوجه من تراب طينها اللازب.

فالنّشوء مرحلة وجود لأداء وظيفة مؤقّتة لغاية محدّدة، فمن قام بها من بني آدم على الوجه المفضّل كان نشوؤه ارتقاء، ومن لم يقم بها نشوءًا: (نهوضًا) فلا يعدّ إلّا صفرًا.

والنّشوء معادلةٌ يمتدّ بداية ونهاية من القيمة الصّفريَّة سلبًا وإيجابًا (ارتقاءً أو انحدارًا)، وهو بالنّسبة للبشر كالنّبتة (سلالة وقيمة)، والصّفر يعدّ نقطة البدء القياسي لكلّ نشوء.

فبداية النّشوء البشري نقطة صفرية، ثم يمتدّ نموّا بين خَلقٍ وخُلقٍ وارتقاءٍ؛ فالإنسان الذي خُلق من الشيء وجودًا (من الأرض) هو من حيث السّلالة الإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، ولكن من حيث كونه إنسانًا بما هو عليه من قيم وفضائل فهو بين رقيّ وانحدار.

أي: إذا شبّ نمو البشر رعاية صحيّة وقيميّة وتعليميّة شبّ نشوؤه نضجا بدنيًّا وعقليًّا وروحيًّا، ونفسيًّا، ومن ثمّ؛ فإذا شبّ نموه الخَلقي في

الاتجاه الموجب (فوق الصّفر)، وشب قِيميّا في الاتجاه السّالب: (تحت الصّفر) فالنتيجة نهاية تكون: (– × + = –) وهنا، تكمن علّة من خُلق في أحسن تقويم؛ كون نشوئه لم يكن على حُسن ما ينبغي أن يكون عليه ارتقاء (خَلقا وخُلقا).

ووفقًا لهذه المعادلة؛ فالإنسان بدلًا من أن تكون قدماه موضوعتان فوق الصّفر، يصبح الصّفر موضوعا فوق رأسه.

وبناء على هذه المعادلة الصّفريَّة يصبح النّشوء مختلفا من جنس لجنس، ومن نوع لنوع؛ فالنّشوء النباتي يتأسّس على جذر وساق، وفي كلتا الحالتين النشوء موجبٌ سواء تحت الصّفر الأرضي (الجذر)، أم فوق سطح الصّفر الأرضي (السّاق)، ولكن لكلّ تأثيره على الآخر؛ فإذا ضُرب الجذر بعلّة يضرب السّاق بعلّة العلة ذاتها؛ ممّا يجعل نتيجة المعادلة صفرية، وفي المقابل عندما يضرب السّاق بعلّة وينزف ينهك الجذر حتى يميته.

ومن ثمّ؛ فالنّشوء يتطلّب بيئة حاضنة تحفّز على النّمو في الاتجاه الموجب الممكّن من استخلاف السّلالات الحسنة، وليس الممكّن من بقائها؛ فالبقاء كلّه بين بداية ونهاية مؤقّتة، أمَّا الاستخلاف فهو بقاء الأجناس والأنواع إلى النّهاية.

ولهذا؛ فالنّشوء ينمو من الصّفر حتى يبلغ قمّته، ثمّ يعود إلى الصّفر؛ حفاظا على النّوع الذي لن يقبل أن يكون الصّفر فوق رأسه.

فالنّشوء في دائرة الممكن هو بين متوقَّع وغير متوقَّع؛ فما هو متوقَّع أن تستخلف السّلالات بعضها بعضا، أمَّا غير المتوقَّع أنْ لا تخلف بعضها البعض، وهنا يكمن الاستثناء؛ كون بعض السّلالات انتهت وانقرضت كما هو حال الديناصورات؛ ممّا يشير في الوقت غير المتوقَّع إلى تعرّض سلالات أخرى للانقراض.

ولأنَّ الخلق من لا شيء، والنّشوء من شيء خُلق الكون كتلة مرتقة، ثمّ بقوَّة الانفتاق العظيم أصبح أكوانًا يحوطها الفراغ، ويملأ أكبر حيّز من حيّزاتها فراغ يسمح بتوازنها؛ إذ لا تماس بينها ما لم يطرأ متغيّر يدفعها قوَّة، قد تخرجها من مركزها الصّفري التي هي عليه توازنا، والذي إن حدث حدثت الطّامّة.

ولأنَّه الانفتاق العظيم؛ فهو انفتاق قوَّة دفع وطرد مع توازن جاذبي جعل للوجود بقاء؛ فالأرض التي كانت مرتقة في السّماوات، ثمّ فتقت، أهبط بها وبمن عليها إلى الحياة الدّنيا، فأصبحت الحياة على الحاجة بعد أن كانت على النّعيم؛ ولذلك فالإنسان الأوّل الذي خُلق على الزّوجية في الأرض الجنّة أصبح على التزاوج في الأرض الدّنيا، ومن هنا كان النّشوء لحظة صفرية لتكاثر الأجناس والأنواع المختلفة.

ومع أنَّ بدء النّشوء الخلقي كان أفرادًا: (كلّ فرد خُلق مستقلًّا عن غيره)، فإنَّ خلق الأفراد كان أزواجًا: (ذكر وأنثى)، وهذا الخلق يشار إليه بخلق الجنس والنّوع، أمَّا النّشوء البشري؛ فكان تكاثرا وتعدّد صفات وخصائص؛ ولذلك فسيظل بينهم اختلاف.

وهنا نقول: الاختلاف أساس النّشوء الخلقي؛ فالذي خُلق من تراب لم يبق على طينة خلقه الأوّل، بل اختلف عنها كلية؛ فأصبح خَلقهُ من نطفة، ولا إمكانية للتّطابق، وهكذا كان الاختلاف خلقًا: (ذكرا وأنثى) وظل الاختلاف اختلافا مغريا لإيجاد علاقات متنوّعة بين المختلفين: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاس أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[140].

ولأنَّهم مختلفون وسيظلون مختلفين، جعل الخالق لكلّ جنس ونوع عقلا يميّزه عن غيره؛ فالطّيور لو لم تعقل ما بنت أعشاشها، والنّحل لو لم يعقل ما اتخذ من الجبال بيوتا، ولو لم يكن للفئران عقلٌ ما أرهقت عقل القطط، وهكذا الغربان ذكاء عقولها تجاوز معرفة الإنسان.

ولأنَّ الاختلاف أساس النّشوء الخلقي؛ فالاختلاف أساس التشابه؛ وحيثما يوجد التشابه يوجد الاختلاف، الذي هو دليل الخصوصية والتميّز والتنوّع بين الأزواج جميعها.

ولذلك فالنّشوء تشابه حياتي واختلاف خصوصيات، ومهما كان التشابه متقاربا في أيّ صفة من صفات الخلائق بين السّلالات والأنواع والكائنات؛ فهو لا يعني تقاربا في كلّ الصّفات والخصائص؛ فلو كان للإنسان مئات الصّفات، وتشابه مع غيره من الكائنات الأخرى في عدد منها؛ فلا شكّ أنَّ هذا الأمر لا يدلّ إلّا على وجود اختلافات كبيرة.

---

[140] هود: 118، 119.

فالنّشوء ظُهور يَمْثُل للعيان مشاهدة وملاحظة (صورة أو شكلًا)، وهو قابل للقياس بداية صفرية، ونهاية عددية من بعدها عودة صفرية، أي: لا بداية للنّشوء إلّا من نقطة الصّفر، ولا بقاء للنّشوء؛ إذ لكلّ بداية نهاية: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ}[141].

فالنّشوء وجود يتمدّد هيئةً وزمانًا ومكانًا؛ فمثلما لكلّ شيء مواقيته؛ فإنَّ لكلّ شيء توقيته بداية ونهاية، ولا شيء يبدأ أو ينتهي إلّا ولحظته الصّفريَّة قد بدأت تمدّدًا أو انكماشًا، أو أنَّ نهايته قد بدأت صعودًا أو هبوطًا، أو أنَّها قد بدأت انفجارًا أو رتقًا.

وكما أنَّ للوجود بداية صّفرية؛ فكذلك للنّهاية بداية صّفرية، فالخطّ الصّاعد عندما يصل إلى أعلى درجة قياسية، ليس له بدّ إلّا الهبوط عندما تضعف قوَّة المقاومة أمام قوَّة الجاذبيَّة؛ ولذلك فلكلّ نشوء بداية ونهاية، ولا بقاء.

ومع أنَّ النّشوء وجود قوَّة حياتية، فإنَّ أيّة قوَّة توجد بالقوَّة فهي الضّعف أمام من أنشأها على القوَّة؛ ولهذا فمهما كانت القوَّة المنشأة؛ فهي لا تخيف إذا ما تدارك الإنسان عقله تذكّرًا وتدبّرًا وتفكّرًا.

ومن هنا، وجب التوقّف عند القوى المتضادّة؛ إذ لكلّ فعل ردّة فعل قد تساويه في القوَّة، وقد لا تساويه، فإن كانت القوَّة متساوية، كانت المعادلة صفريَّة، وإن كانت غير متساوية فلا بدّ من المغالبة؛ ولذلك فلكلّ نشوء ردّة فعل من نشوء آخر، كما هو حال البيئة وتأقلم الكائنات

---

[141] الأنبياء: 104.

معها، وكما هو حال التوازن بين المخلوقات المتضادّة (صياد وطريدة) وكما هو حال القطّ والفأر، والثّعلب والدّجاجة، والضّبع والحمار، والذّئب والخروف، وهكذا، فما يجري بين ذات السّموم وغيرها أعظم.

ولذا؛ فالنّشوء الخلقي نشوء تضادّ بين فعل وردّة فعل، وإن وهنت قوّة أحد الأطراف المتضادّة أو المختلفة.

وبما إنَّ النّشوء نشوء متضادّات الأفعال، إذن: فلا ديمومة للبقاء الآمن؛ فالحياة دنيا، ولأنَّها الدّنيا وجب البحث عن أسباب الارتقاء، وما يحفّز عليه، ويدفع تجاهه عن إرادة.

ولذلك؛ فالنّشوء الخلقي مؤسّس على قوّة الفعل وردّة الفعل المضاد؛ ممّا يجعل الارتقاء البشري ضرورة لإحداث التوازن وإحداث النُّقلة: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ}[142]. أي: ينبغي أن تستخدم قوّة الفعل في مواجهة فعل يساويه، ولكن إن لم يكن الاعتداء؛ فتكون قوّة النّشوء مؤسّسة على قاعدة حُسن الاستجابة؛ ولذلك فساعة حدوث الانفتاق بالقوّة كانت ردّة الفعل قوّة استجابة (الطّاعة) وكانت النتيجة استواء (اعتدالا): {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}[143]. ومن هنا، ينبغي أن يكون نشوء الإنسان على التوازن والاعتدال.

وعليه:

---

[142] البقرة: 194.

[143] فصلت: 11.

ليس من الضّرورة أن تحدث المواجهة مع أيّ نشوء فعل، فقوَّة الفعل ذو الأثر الموجب تمكّن من الاستجابة المرضية؛ ممّا يجعل اندفاع القوَّة في ذات الاتجاه الموجب.

ولذلك فقوَّة الفعل تُحدث تغييرات قد تكون من أجل تحريك الجّسم السّاكن، أو زيادة سرعته، وقد تكون من أجل إيقاف الجسم المتحرّك، أو تقليل سرعته، أو تغييرها، وفي كلّ الأحوال فإنَّ لكلّ نشوء جسم أو كتلة نشوء قوَّة، تدفعه صعودًا ضدّ القوَّة الجاذبة، أو هبوطًا مع القوَّة الجاذبة، ومع ذلك لا بدّ من الوصول إلى النقطة الصّفريَّة صعودًا أو هبوطًا؛ فصعودًا عندما تصبح قوَّة الجسم المندفع تساوي صفرًا حينها يكون الجسم قد وصل إلى نقطة النّهاية، وهبوطًا عندما لا يجد الجسم المندفع إلّا الارتطام بالأرض الجاذبة له هبوطًا، ومن هنا تصبح النتيجة صفرية؛ ولذلك فالنّشوء البشري بداية قدماه فوق الصّفر، ثمّ انطلاق حركة وتمدّد، ونهايته تأتي عندما يكون جهده لا يساوي إلّا صفرًا.

فالنّشوء ينطلق من نقطة الصّفر تمدّدًا حتىّ يبلغ قمّة المسافة التي بإمكانه أن يقطعها وجودًا حيًّا، وهناك يجد الكائن نفسه قد استهلك كلّ قوّته الدّافعة في الاتجاه المعاكس للجاذبية، فيقف بغير قوَّة عند تلك النّقطة الصّفرية؛ حيث الموت يقف هناك منتظرا ليلتهم المنهَكين، فهكذا هو النّشوء فوق الأرض الدّنيا يتمدّد في المسافة الوجودية بين حياة وموت؛ فينتقل من وجود الأحياء إلى وجود الأموات (حيث يقبرون ويقضون وجودهم الذي لا نرى منه إلّا أثرًا (عدما)، وسيظلون هناك

حتى يُقضى على الموت بالموت؛ ليكون البعث ولادة جديدة لبقاء دائم بدايته صفر ولا صفر من بعده؛ حيث التمدّد إلى ما لانهاية.

قاعدةُ النّظريَّة

تأسّست النّظريَّة على دعائم ثلاثة:

. المستحيلُ خَلقًا.

. المعجز نشوءً.

. الممكنُ ارتقاءً.

وكلّ منها مؤسّس على اللحظة الصّفريَّة؛ إذ لا شيء يُخلق أو ينشأ وينمو أو يرتقي إلّا في لحظة الصّفر وجودًا، والتي من بعدها يصبح الزّمن مستوعبًا له بداية ونهاية.

ولأنَّ الصّفر نقطة البداية فكذلك هو نقطة النّهاية؛ فالكون قبل أن يكون كان الصّفر دلالة على عدم وجوده، ثمّ بدأ تمّددا إلى النّهاية التي لم يصلها بعد، وهي التي سيقف عندها صفرا؛ فالصّفر لا يدلّ إلّا على وجود ما هو أعظم؛ ولذلك فهو يشير إلى وجود الأهم والأعظم بداية ونهاية؛ إذ لا شيء يخلق نفسه؛ فلو كان للشيء إمكانيَّة خلق نفسه، لكان الصّفر أوّل الخالقين لنفسه؛ ولهذا فالصّفر نقطة البداية لكلّ وجود، وهو نقطة نهايته، ومن ينطلق من الصّفر بداية لا بدّ وأن يقف عنده نهاية.

ومن يقول: كيف يكون الصّفر نقطة البداية والنّهاية، ولا يوصف بوجود؟

أقول:

لا يعدُّ الصّفر وجودًا؛ كونه لا يزيد عن متفق عليه تسمية؛ إذ لا شيء وجودًا.

المستحيلُ خلقًا

هو ما ليس بيد البشر، وغير ممكن الحدوث على أيديهم؛ فلا يُفعل من قِبلهم، ولا إمكانية لبلوغه، ولكن لو لم يكن ما كنّا، ولأنَّه كائن؛ فلا إمكانية لتجاوزه، ولا إمكانية للقفز عليه وكأنَّه لا وجود. إنَّه الحائل بين الممكن النّسبي (كلّ ما هو بيد المخلوق) والممكن المطلق الذي لا وجود للصّفر فيه، وهو لا يكون إلّا بيد الخالق.

فالمستحيل لا يكون إلّا حيث لا تكون الإمكانية، وهو ليس بالصّعب؛ فالصّعب يمكن بلوغه في دائرة الممكن غير المتوقَّع، أمَّا المستحيل فلا إمكانيَّة؛ حيث وجود الصّفر بداية ونهاية.

والمستحيل لا يُوجِدُ نفسه ولا يخلقها، بل لا بدّ من خالق من ورائه، إنَّه القوَّة التي لا تكون إلّا بيد القوي، الذي لا يُفعل المستحيل إلّا بأمره، ومع ذلك فالمستحيل أمر في ذاته، حيث يقف المخلوق عند حدّ لا يدرك من بعده شيء سوى الوجود الذي لا يكون إلّا بفعل الفاعل الذي جعله وجودا؛ فالفاعل لو لم تكن بيده القوَّة المطلقة ما كان المستحيل فعلا مستحيلا.

فالكون لو لم يكن عملًا مستحيلًا ما كان انفجاره أو فتقه عظيمًا، ومع أنَّ المستحيل شيءٌ يتحقّق، فإنَّه لا يوصف بشيء، أي: لو لم يكن المستحيل شيئًا ما تحدّثنا عنه، ولأنَّه شيء ونتحدث عنه؛ فهو

يشغلنا حيرة تدفعنا تجاه معرفة مَن ورائه؛ فنحن نقف عاجزين أمام توصيف المستحيل الذي مهما تدبّرنا أمره فليس لنا إلّا التسليم، الذي يقرّ بوجود واجد له، ولا يكون إلّا أعظم منه؛ ومن ثمّ فلا يوجد شيء، أو يخلق لو لم يكن من ورائه خالق.

ومن هنا، افترق البعض القليل من النّاس مع البعض العظيم؛ فالقليل منهم وقف عند معجزة المستحيل في ذاته، أمَّا معظم النَّاس؛ فلا يؤمنون بعظمة المستحيل إلّا بعظمة فاعله المطلق الذي خلقه حائلا لا يخترق.

ولأنَّ المستحيل نتاج طاقة وقوَّة فهو فعل يُفعل؛ فينتج عملًا قابلًا للملاحظة والمشاهدة، ولأنّنا نقف أمام المستحيل عاجزين؛ فَلِمَ لا نقف أكثر عجزًا أمام الفعّال له؟

فعلماء الفيزياء اكتشفوا أنّ الكون يتمدّد متسارعا، وهم عاجزون عن إيقافه، بل هم عاجزون عن قياس سرعة تمدّده، كما أنَّهم عاجزون عن معرفة نقط صفر النّهاية التي سيتوقّف عندها؛ ومع ذلك يرى البعض أنَّ الكون يتمدّد متسارعا، ولا شيء وراء تمدّده متسارعًا، أي: لا إله من ورائه، وكأنَّه تمدّد بلا غاية.

ومع ذلك أجمع علماء الفلك والفيزياء على أنَّ للكون نهاية، وليس له بدّ إلّا بلوغها، وهي الانكماش أو التجمّد أو الانفجار الذي ينهي تمدّده المتسارع ويقفه عند حدّه، أو يكون سببًا في إعادة تشكيله من جديد، أو كما نرى نحن إعادة رتقه مع الأكوان الأخرى التي سبق

وأن فُتقت؛ لتعود إلى حالتها الطبيعيَّة التي خُلقت عليها عوضًا عن الحالة التي أصبحت عليها طِباقًا.

وبما أنَّ الفزيائيون واثقون من نهاية الكون؛ فالسؤال:

من الذي وضع له نهاية؟ ثمّ كيف وضع الكون لنفسه حدًّا وهو لم يصل إليه بعد؟

أقول:

كلّ ما قيل في هذه الخصوصيَّة ليس بحكم علميٍّ، بل مجرّد آراء لا تتعدّى نظرات أصحابها الذين انبهروا بما رأوه من مستحيلات حتى ظنوا أنَّها الخالق؛ وهم بهذه النظرة، كمن لا يميّز بين الخالق وما خَلق. ولكن وفقًا لقاعدة المستحيل المؤسّسة على خَلق الشيء من لا شيء؛ فلا شيء إلّا ومن ورائه مشيء، وسيظل الأمر كلّ شيء من ورائه مشيء حتى بلوغ المستحيل الذي لم يكن من ورائه إلّا المستحيل الذي يؤدّي بالواعين إلى التّسليم.

ومثلما يكون وراء كلّ شيء كما هو حال بني آدم الذين هم من نطفة، وآدم من تراب؛ فكذلك يكون وراء كلّ مستحيل يشاهد ويلاحظ مستحيلٌ لا يمكن مشاهدته ولا ملاحظته، مع أنَّه يُدرك استحالة؛ فالمستحيل كفعل يتحقّق عملا، فهو: مثل خلق الكون، والحياة والموت والشّروق والغروب، أمَّا المستحيل كذات؛ فلا يتجسّد في شيء يمكن أن يكون من ورائه شيء آخر؛ فيصبح التسليم به إعجازًا؛ حيث لا شكّ في وجوده، والمستحيلات تتحقّق بين أيدي النَّاس في كلّ جزئية من الزّمان

والوقت ولا أحد يستطيع إيقافها أو الحدّ منها؛ ولذا فمعرفة المستحيل تُمكّن من معرفة مستحيلات أعظم حتى بلوغ المستحيل مستحيلًا.

فالكون الذي قالوا عنه: خُلق من لا شيء ولا خالق من ورائه؛ فبقولهم هذا يعترفون بوجوده، والخالق من ورائه، وإلّا لماذا قالوا: (خُلق من لا شيء) فكلمة (خُلق) تعيد أمر الخلق للخالق، وليس للشيء المشار إليه بأنَّه قد خُلق من لا شيء.

ولأنَّ وجودَ الكون شيءٌ مستحيلٌ؛ فلا شكّ أن من ورائه ما هو أعظم استحالة، وهنا يكمن القصور بين إدراك المستحيل الأوَّل: (الخالق) وما يراه المستحيل اللاحق (الإنسان) الذي خُلق مستحيلًا؛ فالإنسان مع أنَّه خُلق مستحيلًا، فإنَّه لا يخلق المستحيل؛ ولهذا فالقاعدة:

(من يَخلق المستحيل لا يُخلق).

ولأنَّ من يَخْلق المستحيل لا يُخلق، والكون خَلقٌ مستحيلٌ؛ إذن فالمستحيل (الكون) يُخلق وخالقه لا يُخلق؛ ولهذا كان خلق الكون مستحيلا مثله مثل أيّ مستحيل.

والقاعدة الخلقية تقول:

(المستحيل قوَّة تَخرق ولا تُخرق).

ولأنَّ المستحيل قوَّة اختراق لكلّ قوَّة وإن اجتمعت، فقوَّة الكون تمدّدًا وتسارعًا ستقف وتنتهي انكماشًا أو انفجارًا عظيمًا، أو رتقًا أعظم،

وهذا يدلّ على وجود مسيّرٍ للمستحيل، وموقفٍ له، أو مفجّرٍ، أو راتقٍ له؛ إذ لا استحالة أمام الفعل المستحيل.

ومن ثمّ؛ فالتوقّف عند المستحيل عن وعي يمكّن من عدم الوقوف عنده نهاية؛ فالمستحيل فعل لا يتحقّق إلّا وفق مشيئة فاعله، وهو الذي ينبغي أن يدرك بمشاهدة وملاحظة مستحيلاته؛ حتى يدرك أنَّ إدراكه مشاهدة وملاحظة هو الاستحالة بعينها؛ ولذلك فالقاعدة الخَلقيّة تقول:

(المصوِّرُ المطلق يرى ولا يُرى).

ومن هنا؛ فلا إمكانيَّة لرؤية المصوِّر المطلق؛ كونه لا يُصوَّر؛ ولهذا فخالق الشيء لا يمكن أن يكون الشيء؛ ذلك لأنَّ الشيء يُخلق والمشيء لا يُخلق.

ولأنَّ المشيء لا يمكن أن يكون شيئا، إذن: فكيف للكون كونه شيئًا أن يكون مشيئًا لخَلق ذاته؟

هذا ما ارتأه بعض علماء الفيزياء الذين وقفوا على معجزات الخالق وكأنَّها خالقة لنفسها، ومن لا شيء، وفي هذا الشأن وكأنَّهم يقولون: نحن خُلقنا شيئًا من لا شيء في الوقت الذي هم فيه يعلمون أنَّهم قد خُلقوا من ترابٍ، وإلّا كيف يقبلون بخلقهم من تراب وهم يعلمون أنَّ أباهم آدم لم يخلق نفسه، وهو من تراب، أي: بما أنَّ آدم من تراب، ولم يكن ترابًا فمن الذي خلقه آدمَ؟

إنَّ هذه القاعدة تسري بالتّمام على خَلق الكون الذي قالوا عنه: إنّه من ذلك الانفجار العظيم لتلك الذّرة التي لم يقولوا عن خلقها شيئًا،

وهي التي لو لم تُخلق ما كانت ذرة، وما انفجرت كونًا عظيمًا كما يدّعون بلا دليل سوى وجود أثرٍ يشير إلى الانفجار، أو يشير إلى ما يشبه الانفجار، في الوقت الذي قال فيه الخالق غير ذلك: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[144].

وبناء على هذا القول تساءلنا:

أيّهما أولى: أن نأخذ بقول الخالق، أم أن نأخذ بقول المخلوق؟ ومع ذلك قبلنا قول المخلوق لنأخذ بقول الخالق.

فالخالق الذي خَلق الكون وكوّر فيه النّجوم والكواكب كما كوّر منه الأرض التي خُلق الإنسان الأوّل من ترابها عندما كانت مرتقة في السّماوات جنّة، قال: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}[145]. فكيف بمن لم يكن سابقًا على قوله تعالى، أن يقول: إنّ الكون خَلق نفسه؟

وإذا سلّم من سلّم بهذا القول؛ فسيجد نفسه في مواجهة مع خلق نفسه التي لم يخلقها، وبتسليمه هذا ليس له بدّ إلّا الاعتراف بأنّه لا إمكانية أن يخلق الشيء نفسه، أي: كيف لمن يعرف أنّه خُلق من نطفة أن يقول شيئًا غيرها؟

ولأنَّ قاعدة الخلق تقول: الشيء يُخلق ولا يَخلق.

إذن: فمن خُلق من نطفة ليس له بدّ إلّا استمداد قاعدة خلقه من شيء: (تراب أو نطفة) ليستقرأ بها خلق الشيء الذي لا يمكن أن

---

[144] الأنبياء: 30.

[145] الزّمر: 62.

يخلق نفسه. إنَّها المسلّمة لمن يدرك أنَّه لم يَخلق نفسه؛ لكونه يدرك خلقه من النطفة التي من قبلها يعلم أنَّها لولا التزاوج ما كانت، وكذلك من قبلها يدرك أنَّ أبويه: (آدم وزوجه) لم يكونا من نطفة، وهنا تكمن العلّة التي قفز عنها بعض من علماء الفيزياء بقولهم: إنَّ الكون خلق نفسه ولا خالق من ورائه.

ومع أنَّهم يؤمنون بخلق الأشياء، ولكنّهم عندما وقفوا عند أكبرها: (الكون)، قالوا: إنَّه شيء، ولكنّه خالق، وهذا ما يتعارض مع قواعد الخَلق:

. هيئة الشيء تسبق الشيء وجودًا.

. وراء كلّ شيء مشيئة.

. وراء كلّ مخلوق خالق.

. الخالق يرى ما خلق، والمخلوق لا يرى خالقه.

ولذا؛ فالكون لو لم يكن له مكوِّن ما كان كونًا، والخَلقُ لو لم يكن من ورائهم خالق ما خُلقوا، والعلم لو لم يكن من ورائه العالم ما عُلّم: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا}[146].

وعليه:

فالمستحيل فعل، والفعل لا يشاهد ولا يلاحظ إلّا إذا تجسّد في عملٍ؛ ولذلك فالمستحيل طاقة تُمكّن من إيجاد ما لم يسبق وجوده؛ ومن

---

[146] البقرة: 31.

ثمّ؛ فالمستحيل فعل أوجد كونا متمدّدا ومتسارعًا في تمدّده، ثمّ خُلق منه وفيه ما خلق مستحيلًا، وكلّ ما خُلق استحالة، لا يُخلق ممّن لا يتجاوز جهده دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع.

ولأنَّ الكون خُلق خَلقا مستحيلًا، إذن: فلا إمكانية لخلق كون مثله إلّا من الذي خَلقه مستحيلًا، ومن هنا، استقرأ علماء الفيزياء والفلك وجود أكوان أخرى خارج كوننا المتمدّد تسارعا، ومع أنَّهم اكتشفوا معطيات تشير لذلك، فإنَّ ما هو أعظم أنَّ الخالق قد أخبر عنها وضوحا، ويا ليتهم يطّلعون على الكتاب؛ لعلّهم يرشدون إلى ما هو أعظم علما ومعرفة: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}[147]؛ فقوله: (فكيف خلق) هنا يكمن المستحيل حيث لا إمكانية لمعرفة الكيفيَّة: التي بها خلقت الأكوان طِباقًا؛ ولأنَّ معرفة: (كيف؟) أمرٌ مستحيلٌ؛ فأخبرنا الخالق عن (الكيف) بقوله: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[148]، أي: بعد أن كان الكون ملتحما سماوات وأرضين، فُتق مستحيلًا إلى سبع سماوات وسبع أراضين، وبما أنّنا نعلم بفتق الأكوان؛ فَلِمَ لا نبحث حتى نكتشفها مستحيلًا بعد مستحيل.

ولذلك؛ فالأرض لا تَخلق الأرض، والسّماء لا تَخلق السّماء، وعالم الفيزياء لم يلد نفسه ولم يخلقها، وحتى إن خُلق الشبيه بأيّ مفتاح من مفاتيح العلم؛ فلن يُخلق الشبيه البشري إلّا من خلية حيّة، وحتى أن

---

[147] نوح: 15.

[148] الأنبياء: 30.

خلق الشبيه فسيظل شبيها؛ ولذلك فقضية الخلق (الحياة) لن تكون إلّا بيد من بيده أمر الحياة.

ولأنَّ المستحيل لا يمكن أن يُدرك إلّا عندما يصبح شيئًا مفعولًا؛ إذن: فالمستحيل عندما يتجسّد في عملٍ يصبح مفعولًا شكلًا أو صورة أو شيء مشاهدًا وملاحظًا، ولأنّه المفعول فلا يكون إلّا بفعل الفاعل؛ ولأنَّه بفعل فاعل المستحيل فهو لم يَخلق نفسه، بل من ورائه خالق المستحيل الذي لم تتمكّن عقول بعض الفيزيائيين من التمييز بينه وبين فعله الإعجازي، فعقول البعض وقفت عند المستحيل وكأنَّه الخالق، وهنا تكمن العلّة المعيقة للبعض من الارتقاء وإحداث النُّقلة.

ولذلك؛ فالكون لو لم يكن مخلوقا ما كان مستحيلًا، والاستحالة من أجل أن تُدرك ينبغي أن تلاحق وتتابع استحالة بعد استحالة، وكأنَّها تتدرّج من الأصعب إلى الصّعب، فخَلق الكون وتسييره أكبر المستحيلات التي تمّ إدراكها عقلا، ثمّ خَلق المشاهد في ظُلمة، فيها خُلقت الأرض كما خُلقت النّجوم والكواكب والمجرّات، ثمّ خلقت الأزواج من الأرض وهي مرتقة في السّماء، ثمّ من بعدها خُلق التكاثر تزاوجا؛ فكلّ هذه المخلوقات هي نتاج الفعل المستحيل؛ ولذلك فبمقارنة خلق الأزواج من الأرض وهو الأقرب لعقول البشر، نجد أنَّ الخلق من لا شيء (خلق الكون) يبدو وكأنّه أصعب من خلق الأرض، وهكذا خَلق الأرض يبدو وكأنّه أصعب من خلق آدم وزوجه المخلوقين منها، وكذلك الخلق من التزاوج على الصّعوبة التي لا تقارن لو لم يكن هناك ما هو أعظم خلقًا منه.

ومع أنَّنا ندرك أنَّه لا صعوبة بالنّسبة إلى الخالق؛ كونه يخلق بأمره ما يشاء متى ما يشاء، وأينما يشاء، وكيفما يشاء، ولكن لتقريب المعنى وتوصيل المفهوم دلالةً استمددنا مثالًا توضيحًا للمستحيل الذي لا يكون إلّا مخلوقًا ومفعولًا من خالق يَخلقه ويفعله؛ ولذلك فلا وجود للصّعب على من بيده أمر الخلق استحالة، ولكنّ الصّعب يواجه من يحاول بجهده ومقدرته المحدودة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقَّع.

فالمستحيل فعل لا تواجهه الصّعوبة، بل الصّعوبة تواجه الممكن الذي لا يكون إلّا في حدود الجهد والإمكانات المتاحة؛ فالمستحيل لا علاقة له بالجهد، بل له علاقة بالفعل المطلق الذي لا يكون إلّا بيد من فعل المستحيل الذي به خُلق الكون تمدّدًا وتسارعًا إلى النّهاية التي من بعدها ستؤول الأكوان كونًا مرتقًا.

ولذا؛ فعندما تُرتق الأراضين والسّماوات يعود الكون كما خُلق أوّل مرّة: {اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ}[149]؛ فالوجود هكذا سيكون بين تمدّد وانكماش حتى النّهاية التي تعتدل فيها الأكوان على كرسي خلقها بلا استحالة.

فالمستحيل لا يكون بالعمل، بل المستحيل لا يكون إلّا بالفعل؛ ذلك لأنَّ العمل يتحقّق وفقا لما يُبذل من جهد وما ينجز منه، أمَّا الفعل فلا يتحقّق إلّا بفعل الفعّال؛ إذ لا حاجة للجهد (كن فيكون)، وعن غير مقارنة؛ فأنا مثل غيري، بنظرات عيني فقط، أقول لأبنائي: اصمتوا،

[149] الرّوم: 11.

أو اجلسوا، أو اخرجوا، فما بالك بخالقي وخالق الكون وكلّ شيء مستحيلٍ، ألا تكفي كلمة (كن)؟

وعليه:

فكلِّ ما لم يكن مستحيلاً ممكن، والفرق بينهما، هو: أنَّ الممكن، قابل للإثبات أو الاكتشاف، وهو في حاجة لمن يبرهن على معطيات وجوده، وهو قابل للإثبات مثلما هو قابل للنّفي والرّفض، وقابل للظّهور مثلما هو قابل للكمون.

ولهذا، لو لم يكن ممكناً ما تمَّ إثباته واكتشافه وظهوره وكمونه والشّكّ فيه، ومقارنته مع غيره، أو معرفة مدى ترابطه أو ثباته أو اهتزازه.

أمَّا المستحيل فهو المثبت الذي نعلم به ولا نعرف كيفيَّته إن لم يخبرنا عنها فاعله تعالى، فعلى سبيل المثال: المؤمنون يعلمون بيوم البعث، ولكنَّهم استحالة لا يعرفونه، ولا يعلمون ساعته؛ ولذلك فالخلائق تموت ولا أحد يستطيع إيقاف الموت عنها، والأحياء يخلقون ولا أحد يستطيع بث الحياة فيهم إن لم يولدوا أحياء؛ وهكذا الشّمس تشرق وتغرب ولن يستطيع أحد تغيير أمرها أو تبديله.

ولأنَّ وجود المستحيل لا يُنفى، ولا يُلغى، ولا يُقدّم ولا يؤخّر؛ فهو متحقّق في زمن المفاجأة، فالصّواعق والزّلازل والبراكين لا بدّ وأن تحدث، ولكن ينبغي أن نعمل ما من شأنه أن يقينا منها، والمرض أتٍ ولكن ينبغي أن نعمل ما من شأنه أن يقي عنه، ويشفي منه، والصّحة تضعف، والعمل على تقويتها ضرورة ممكنة، والموت لا شكّ أنَّه آت وإن

طالت أعمارنا وبلغنا عمر نوح عليه السّلام أو حتى تجاوزناه سنينَ؛ فكلّ ذلك ممكنٌ علما وبحثا ومعرفة. ولكن أن نلغي الحياة أو الموت حتى وإن دمّرنا ما يمكن لنا تدميره؛ فلا إمكانية، وهنا يكمن المستحيل، أي: إنّ أمر المستحيل بين يدي فاعله أمرًا نافذًا؛ فعلى سبيل المثال: عندما يكون اليوم هو يوم السبت فإنَّ يوم الأحد سيأتي غدًا وفقًا لِعِلمنا ومعرفتنا، ولكن أن يحدث الانفجار العظيم ثانية، أو ينكمش الكون، أو أن يُرتق في لحظة المفاجأة فذلك مستحيلٌ، ولن يأتي الأحد غدًا كما هو متوقَّع.

ذلك لأنَّ المستحيل هو فعل يُفعل بغتة: (في زمن المفاجأة)، وهو الذي يحتوي دائرة الممكن، والممكن لا يحتويه؛ فالممكن لا يكون إلّا وفقًا للاستطاعة، ولا يتحقّق إلّا على أيدينا، أمّا المستحيل فهو ما لا تستطيع قوّتنا فعله، ولا أيدنا عمله، ولا عقولنا إدراكه ومعرفة كيفيّته. ومع ذلك فمن الضّرورة التفكير فيه بعمق ودون ملل، فالملل يحول بين الحقيقة والباحثين عنها.

ولذا، ينبغي للبحاث أن أرادوا معرفة المجهول، أن يصوغوا له تساؤلات؛ فالتساؤلات تقود إلى معرفة المجهول في دائرة الممكن، ومن ثمّ فالبحاث الذين يعتمدون على صياغة الفروض العلميَّة لن يتمكّنوا من معرفة المجهول، بل يتمكّنوا فقط من معرفة النّصف المتبقي من المعرفة المتوفّرة لديهم؛ فالفروض وإن عظمت نتائجها فهي لا تصاغ إلّا ونصف المعلومة غير مجهول، وللضّرورة هم يبحثون بهدف معرفة ما يتمّم نصف ما لديهم من معرفة.

ولذلك، وجب تقدير الشّطحات العلمية؛ فهي في دائرة الممكن قد تؤدّي إلى معرفة المجهول، أمّا بالنّسبة لما هو مستحيل فالشّطحات عندما تكون موضوعيَّة؛ فهي تمكّن من معرفته وإن قصرت عن معرفة الكيفيَّة التي هو عليها، ولكن عندما تكون الشّطحات غير موضوعيَّة فهي بلا شكّ ستزيد الهوة اتساعًا بين ما هو مستحيل، وما ينبغي لنا أن نتمكّن من معرفته وإدراكه.

ومن هنا؛ فلا ينبغي أن تكون المناهج تدبّرية مقتصرة على الوقت الحاضر، بل ينبغي أن تكون تطلّعية، تستوعب الحاضر تدبّرًا ولا تقتصر عليه؛ فالتدبّر لا يكون إلّا وفق الإمكانات المتاحة في الوقت الحاضر، أمّا التطلّع فهو البحث عمّا يُحدث النُّقلة إلى ما هو أفضل وأكثر ارتقاء.

ولذلك؛ فالتّطلّع يُمكّن الإنسان من استقراء المستقبل وصناعته، ثمّ يمكّنه من تجاوزه ارتقاء، ومن ثمّ إذا أردنا معرفة المستحيل وبلوغه استحالة؛ فلا ينبغي أن توضع إشارة (قف)، أمام التفكير العلمي لبني آدم، بل ينبغي أن نفكّر فيما نفكّر فيه حتى ننجزه عملًا متحقّقًا أمام المستحيل وآفاقه البعيدة، والذي بوجوده بعيدًا عنّا يفسح لعقولنا مجالات التفكير فيه، والتمدّد تجاهه بلا موانع. أي: ينبغي أن نفكّر في كلّ شيء، وبكلّ حرّية مقدّرة، حتى نعجز، وحينها نعرفه مستحيلًا؛ ولذا فلا مستحيل قبل العجز، ومن ثمّ وجب البحث حتى بلوغ العجز الممكّن من معرفة المستحيل عن قرب؛ ولذلك خُلقنا.

ولأنَّنا خُلقنا لذلك؛ فينبغي أن نعمل والمستحيل نصب أعيُننا؛ حتى ندركه عجزًا، وحينها ندرك أنَّ الارتقاء إليه يمدّنا بالثّقة حيث كلّ شيء ممكن حتى وإن كان غير متوقَّعٍ.

ولأنَّه المستحيل؛ فهو لا يعيق العمل ارتقاء، بل الذي يُعيق العمل عن النّهوض، وإحداث النُّقلة، وبلوغ الارتقاء قمّة هو العمل الذي ينحدر بأصحابه في دونيّة الأخلاق وسُفلية التخلّف السياسي والاقتصادي والاجتماعي والإنساني: {وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ}[150].

فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، هو الإنسان المقوّم للارتقاء، وليس للدّونية، ولكن لأنّ الارتقاء والدّونيّة يتأثران بالمعرفة والتّخيير تذكّرًا وتدبّرًا وتفكّرًا؛ فهما بيد الإنسان رغبة واختيارًا؛ ولذلك ينبغي أن يعمل بنو آدم كلّ ما من شأنه أن يؤدّي بهم إلى إحداث النُّقلة الممكّنة من معرفة المستحيل وبلوغه ارتقاء.

وعليه:

فالفعل المستحيل لا يكون إلّا خَلقًا؛ ولأنّه كذلك فلا يكون إلّا إعجازًا؛ إذ لا إمكانية لخلق الشيء شيئًا إلّا بمشيء، وحتى إن عُدنا لذلك التّساؤل الذي كنّا نطرحه على أنفسنا أيّام المراهقة والثانوية، وهو:

من الذي خلق الخالق؟ وكيف كان قبل أن يخلق ما خَلق؟

---

[150] الكهف: 88.

أقول:

بما أنَّنا نقول الخالق، إذن؛ فلا ينبغي أن نسأل عمّن خلق الخالق؟ أي: كيف لنا من زاوية نقول: الخالق، ومن زاوية أخرى نسأل عنه؟ إنَّه الخالق الذي يخلق ولا يُخلق، ومن ثمّ؛ فكلّ شيء يُخلق؛ فهو ليس بالخالق؛ ولذا فلا فواصل بين الخالق وخَلقه؛ فالخالق ليس على الصّورة ليكون موجودًا قبل أن يخلق الخلائق؛ ولذلك فالسؤال ليس في محلّه؛ لأنَّ السّائل جعل في ذهنه هيئة للخالق، وهنا تكمن العلّة، حيث لا هيئة للخالق، بل له مشيئة، والمشيئة هي فعل المستحيل، والتفكير في الفعل المستحيل يجعل السّائل في حيرة من أمره بعلّة في نفسه وهي: اختلاط فكرته عن الخالق الذي لا يُصوّر بما هو على هيئة الصّورة، وبالتّالي فمن يتصوّر لله هيئة، يجعله وكأنَّه داخل الإحاطة، ومن يفكّر داخل الإحاطة؛ فتفكيره لا يزيد عن كونه تفكير كتكوت داخل البيضة، والذي لا إمكانيَّة له في رؤية عالم أعظم من عالمه داخل البيضة؛ ولذلك فهيئة الله بلا هيئة، وصورة الله بلا صورة. ومن هنا؛ فنحن غير عاجزين عن معرفة الله، ولا يليق بنا أن نسأل عمّن بيده الأمر (كن) كيف كان؟

نعم، الله لم يكن، حتى نسأل عنه كيف كان، فمثل هذا السؤال يتعلّق بمن لم يكن فكان، كما هو حال الكون الذي كما يقولون عنه: كان نتاج ذلك الانفجار العظيم سببًا، وكما هو حال الأزواج التي لو لم تكن الأرض كائنة ما خُلقت منها الأزواج سببًا، وغيرها كثير من الخلائق التي قبل خلقها لم تكن بخلائق.

ومن هنا؛ فلا ينبغي أن يكون السؤال: كيف كان الله؟

بل ينبغي أن يكون السؤال: من هو الله؟ وما هي صفاته؟

فالله هو الذي يُسمّى بهذا الاسم، وهو الذي لم يكن كائنًا، حتى يسأل عنه كيف كان؛ ولذلك فالكائن لا يكون إلّا على هيئة يراد له أن يكون عليها فيكون. وبالتالي فأيّ كائنٍ لا يكون إلّا على هيئة ووفق مشيئة ليست بيده، ومن هنا؛ فنحن ندرك الكون علمًا، ولكنّا لا ندرك هيئته، وكيف لنا بهذا ونحن لم ندرك صورة الكون متكاملة؟ أي: كيف لنا بهذا ونحن داخل محيط الكون الذي لم نتمكّن بعد من الخروج عنه بأيّ سبب، ومع ذلك يمكن لنا أن نتصوّر الكون بوصفه جزيء فيه أو حتى إنّنا أقل من ذلك بكثير، أمّا الخالق فهو على غير هيئة؛ كونه على غير صورة، وبالتالي لا إمكانيَّة لوضعه في أيّ هيئة ذهنية، ولا يليق بعقولنا ومدركاتنا التي أدركته استحالة أن تجعله على هيئة أو صورة وهو لم يضع نفسه فيها؟

ومن ثمّ؛ فالله يخلق غيره، وغيره لا يخلقه، وبالعودة إلى السؤال: كيف كان الله؟

فالله لا يكون.

ومن هنا، فالسؤال لا علاقة له بمن يُسأل عنه، بل له علاقة بالسّائل، الذي لا يعرف من كينونته إلّا إنَّه من نطفة، ومن قبلها من تراب، ولا شيء غير ذلك، ومع ذلك يسأل: كيف كان الله؟

أي: ألا يكفي إجابة أنَّه يعلم أنَّه قاصر عن معرفة كيفيّة خلقه التي ليس له رأي فيها؟ ويسأل عن كيف كان الله؟

أقول:

عليك بالبحث في الكون بلا توقّف؛ لعلّك تعرف كيف خُلق، وكيف كانت له هيئة قبل أن يُخلق، ووفق أيّة مشيئة هو خُلق؟ وكذلك عليك بالبحث في نفسك؛ لعلك تعرف كيف خُلقت، وكيف كانت لنفسك هيئة قبل أن تُخلق، ووفق أيّة مشيئة هي خلقت؟ وعليك أن تفكّر فيما تفكّر فيه قبل أن تتكلّم وتقرّر أو تعمل؛ فإن فعلت ذلك عن وعي، لا شكّ إنّك ستدرك أنّ صفات الله تتعدّد بتعدّد نعمه، وهو الواحد الذي لا يتعدّد.

المُعجز نشوءًا

النّشوء خَلقٌ من خَلقٍ، وإنبات من نبتٍ، ومُعجز قابل للنمو؛ فالخَلقُ كونه غير مسبوق، هو الفعل المستحيل الذي لا يتحقّق إلّا أمرًا؛ ولذلك فالخَلقُ فعل يسبق المخلوق تحقّقًا كما هو خلق الكون شيء من لا شيء يذكر، أمّا النّشوء فهو الخلق ممّا خُلق إعجازًا، كما هو خلق الأزواج من الأرض، ومن الأنفس، وممّا لا نعلم: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}[151].

أمَّا النّمو في ذاته فلا يكون نموًّا إلّا في ذات غيره نشوءًا، حيث لا وجود للنّمو من غير شيء ينمو، فهو عمليَّة ازدياد، كما هو ازدياد حجم الكون تمدّدًا وسرعة، وكما هو ازدياد حجم الخلايا نموًّا وضخامة، وكما هو نمو (نشوء) النبتة من بذرة إلى شجرة.

[151] يس: 36.

ولذا؛ فكلّ شيء مؤسّس على الإعجاز ينمو إلى النّهاية (نهاية المكان أو الزّمان) الخاصّين بمن ينمو إعجازًا (نضجًا وعمرًا)، وهذا الأمر ينبغي أن يُلفِتَ نظر الإنسان إلى نفسه؛ كي ينمو قولا وعملًا وإرادة وسلوكًا، أي: يجب أن ينمو تذكّرا؛ حتى يبلغ بداية الخلق وسرّ وجوده مستحيلًا وإعجازًا، بهدف استجماع القوّة من التّاريخ المملوء بالمستحيلات والمعجزات والتجارب والقصص والمواعظ والعبر، التي تمكّنه عن تدبّر من إنشاء شيء جديدٍ يفوق ذلك الماضي ارتقاء؛ ومع ذلك فلا يقف عنده غاية؛ فالغاية بالنّسبة لمن تدبّر أمره في حاضره ارتقاء، هي بلوغ ما هو أعظم منه ارتقاء؛ ولهذا فعليه أن يفكّر فيما هو أعظم، وعليه أن يعرف أنّ بلوغه ممكنٌ؛ فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، مهما عمل من الأعمال الحِسان فهو يعلم أنّه بالإمكان بلوغ ما هو أحسن منها؛ ولهذا فلا ينبغي أن يتوقّف نموًّا، بل عليه أن يعمل والأمل لا يفارقه، وعليه أن يعرف أنَّ العمل ارتقاء وحده يطوي الهوة بين الأمل وصاحبه، وبين الحاجة المتطوّرة ومشبعاتها المتنوّعة.

ولأنَّ الخَلقَ هو فعل المستحيل يتحقّق إعجازًا؛ فهو غير المتوقّف نموًّا وازديادًا، بل حاله من حال الكون المتمدّد تسارعا؛ ولذلك فالخَلق بلا انقطاع يحتوي نشوءًا معجزًا، والنّشوء بلا انقطاع يحتوي نموًّا، والنّمو بلا انقطاع يحتوي ارتقاء يحقّق الرّفعة في دائرة الممكن.

ولأنَّ فعل المستحيل بيد الخالق؛ فالخالق لو لم يفعل مستحيلًا، ما نشأ الخلق وجودا مُعجزًا، وما أمكن للإنسان ارتقاء، إنّها حلقات متداخلة (خلق، نشوء، ارتقاء)، ولا يمكن أن تستقل حلقة عن أخرى،

فحيثما كان الخلق كان النّشوء، وحيثما كانا: (الخلق والنّشوء) كان الارتقاء، أي: لا ارتقاء بلا نشوء، ولا نشوء بلا خلقٍ، ولا خلق بلا خالق، ومن هنا، نميّز بين ما هو مستحيل إلّا بفعلٍ مطلق، وما هو نشوء إلّا بفعل معجز، وما هو ممكن إلّا بعمل واستطاعة.

فالنّشوء خلقٌ من خلقٍ، وإنبات من نبتٍ، وإعجاز من معجز؛ فالأرض عندما كانت مرتقة في السّماء كانت بيئة صالحة للإنبات بلا تكاثر، وهذه هي النشأة المعجزة (الأزواج) كما هو حال نشأة آدم وزوجه من تراب: {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا}[152]؛ فإنبات آدم وزوجه من الأرض كان ظهورًا مشاهدًا مثل النبتة بالتّمام، غير أنّ النبتة ذات جذور ضاربة في الأرض، أمّا آدم وزوجه فلا ضربَ لهما في الأرض إلّا سلالة؛ ولهذا فخطاهما تمشي عليها استقامَ قامة.

وهذا الأمر ينبغي أن يلفت نظر الإنسان إلى أهمية الأرض؛ كونها الأم الأولى، والوطن الأوّل، الذي فيه بنو آدم إخوة مختلفون، ولِمَ لا يظلون إخوة مختلفين؟ فالاختلاف مشيئة الخالق في خلقه، وليس بعيب أخلاق، بل العيب الذي ينبغي أن يُجنّب هو الخلاف الذي بأسبابه تقاتلا ابنا آدم؛ حيث سيطرت الشّهوة والرّغبة الشخصانيَّة على أحدهما؛ فأقصى أخاه ثمّ قتله.

ولأنَّها العلل المفرّقة بين الأخوة ألما؛ فَلِمَ لا تُقبر بيدٍ واحدة، وعن قلبٍ واحدٍ، ويترك المجال ارتقاء لنشوء المودّة والتوافق بين بني آدم، من

[152] نوح: 17.

أجل البناء نموّا يطوي الهوة بين الأرض والسّماء عملًا لا اتكاليَّة فيه من أحدٍ على أحدٍ.

ولأنَّ النّشوء منبت الحياة نموّا معجزا فهو لا يتوقّف خَلقًا؛ ولأنَّه كذلك فَلِمَ لا يكون كذلك لا يتوقّف ولا يتخلّف على أيدي بني آدم، تعليمًا، وصحّة، وزراعة، وصناعة، وبناء وإعمارًا، وإصلاحًا، وغزوًا للفضاء حتى بلوغ الحلّ الممكّن من بلوغ الجنّة نعيمًا وفردوسًا.

ولأنَّ العلاقة بين الخَلق، والنّشوء، والارتقاء علاقة ارتباطيَّة؛ فهي مثل علاقة (الأرض والبذرة والسّماء)؛ فالبذرة لو لم تُبذر أو تُغرس في الأرض ما نبتت ونمت على ظهرها ارتقاء في اتجاه السّماء وكأنَّها تأمل بلوغها غاية.

ولأنَّ العلاقة بين الخَلقِ والنّشوء والارتقاء، علاقة بين مستحيل، ومعجز، وممكن؛ فهي علاقة اعتمادية بين السّابق (الخَلق)، والتابع (النشوء)، واللاحق (الارتقاء)؛ ولذلك وجبت المعرفة على اللاحق، لكلّ تابع لما قبله سابق، ممّا يجعل الماضي البعيد هو المستقبل بعينه، أي: لو كان أبونا آدم على قيد الحياة وسألناه: ما هو المستقبل المأمول؟ لقال: تلك الجنّة: (ذلك الماضي الّذي نشأ فيه ارتقاء قمّة ورفعة).

ومن هنا؛ فإنَّ التفكير في المستقبل يربط المفكّر وما يفكّر فيه بالماضي المأمول، ومع أنَّ الزّمن في أذهاننا مقسّمٌ بين ماضٍ وحاضرٍ ومستقبلٍ، فإنَّ التفكير تدبّرًا في الوقت الآن لا يمكن أن يفصل مستقبل آدم المأمول عمّا نشأ فيه يقينا؛ ولذلك فالزّمن الحاضر كما يربطنا بما

جرى ارتقاء؛ فهو يربطنا بما نأمل الارتقاء إليه، سواء أكان المأمول قد حدث في الماضي، أم إنَّه سيعود إلينا ثانية.

ومع أنَّ خلق آدم وزوجه كان خلق قمّة في أحسن تقويم، فإنَّ آدم وزوجه انحدرا عن تلك القمّة باختيارهما، ومع ذلك عندما عرفا أنَّ العلّة قد ألمت بهما وكانت من وراء انحدارهما هبوطًا دونيًّا، ندما واستغفرا لذنبهما؛ فتاب الله عليهما، ومن هنا، نشأ لديهما أمل العودة إلى تلك القمّة الماضية وهي بالنّسبة إليهما الأمل المفقود، ولكنّ هذا الأمل المفقود لا يمكن أن يبلغ إلّا بالعمل ارتقاء.

وهنا يتداخل الزّمن، فما يأمله آدم وبنوه المصلحون هو: تلك الجنّة التي خُلق فيها آدم وزوجه، ولكن كيف تكون تلك الجنّة هي الماضي، وتكون هي المأمول ذاته في المستقبل؟

أقول:

الجنّة خُلقت وجودًا في الكون المرتق؛ حيث لا وجود للأيّام، بل هناك اليوم الواحد: (اليوم الآخر) الذي لا وجود للظُّلمة فيه؛ إذ لا مجال للشّروق والغروب، ولأنَّه كذلك فلا وجود للماضي والمستقبل، بل الوجود للحاضر، ولا شيء غيره.

فالمخلوق عندما ينتهي من الوجود الحي، ليس له من الأيّام إلّا الزّمن الحاضر، وكذلك عندما يُبعث حيّا لن يجد شيئًا مسجّلًا إلّا في الزّمن الحاضر الذي وحده سيكون الشّاهد الأوّل على الأعمال ثقيلها وخفيفها.

ولذلك؛ فكلّ حياة الإنسان هي زمنٌ حاضرٌ، وكلّ ما يعمله الإنسان فيها، ويتمّ استدعاؤه من الذاكرة لا يكون إلّا حاضرًا في الزّمن الحاضر. أي: كلّ شيء يُفعل أو يُعمل لا بدّ أن تسجله الحياة في صفحاتها حاضرًا.

فالزّمن دائرة، نقطة بدايتها تتمثّل في كلّ نقطة من نقاطها المتّصلة، التي عندما يوضع الأصبع على أيّ منها تعدّ هي مركز منتصفها، وفي الوقت ذاته تعدّ نقطة نهايتها، وهنا يعدّ الزّمن كلّه حاضرا، أمّا الأعمال في الزّمن فهي الشّاهدة على من يقوم بها؛ ولهذا يموت العاملون وتبقى أعمالهم حاضرة؛ حيث لا وجود لماض يقبرها، بل الماضي يحفظها حاضرًا.

ولذلك؛ فالنّاس يحدّدون أهدافهم، ثمّ يعملون على إنجازها أو تحقيقها وبلوغ الغاية التي من ورائها، مع العلم أنّ الزّمن بين تحديدها وبلوغها يحتاج إلى أعوام، وهذا يعني: أنَّ زمن تحديد الأهداف لم يكن هو زمن تحقيقها، ولا تحقيق الغاية التي من ورائها، مع أنَّ الزّمن الذي حُدّدت فيه قد أصبح ماضٍ، وهو في الوقت ذاته بالنّسبة إلى إنجازها أو بلوغها لا يعدّ إلّا مستقبلًا.

ومن ثمّ؛ فتلك الجنّة بمقاييس زماننا هي ماضٍ، ولكن إن سلّمنا بذلك، ألا يعني أنَّ الماضي سيظل ماضٍ ولن يعود؟ وإذا كان كذلك فلا أمل فيه، ممّا يجعل التسليم به، وكأنّنا نقول: لا وجود للجنّة في المستقبل.

ولهذا؛ فمن يعمل، ثمّ يزداد نموّا وارتقاء؛ فلن يبلغ جنّة غير تلك الجنّة التي هي حاضر آدم وزوجه، وهنا نقول:

إنَّ الماضي المأمول هو المستقبل بعينه فمن شاء بلوغه؛ فليعمل على مستقبل يربطه بالماضي ارتقاء؛ ولكن هذا لا يعني الاجترار، ولا يعني الالتفات إلى الوراء، بل يعني: التقدّم تجاه المأمول نشوءًا وإبداعًا منتجًا لكلّ جديد مفيد يرتقي بالنّاس إلى تلك الجنّة، وحيث ذلك الماضي الذي خُلقت فيه الأزواج، والتي كان آدم وزوجه على رأسها في أحسن تقويم (قمّة).

فالزّمن متصّل بلا فواصل، وما يسمى بالماضي والحاضر والمستقبل، لا تزيد عن كونها فواصل من عندنا، وليس من عند الزّمن؛ فالزّمن هو الزّمن حاضرًا، ولكن الأحداث التي تقع فيه تفصل بينها الأيّام التي بها تُعدّ السّنين، وفيها تُصنّف الأعمال بين من ثقلت موازينه من أجل العودة إلى تلك الجنّة أملًا وارتقاء، ومن خفّت موازنه انحدارًا؛ إذ لا أمل له في ماضٍ لم يأمله مستقبلًا.

ولذا؛ فَخَلق الكون مُرتقا، ونشوء آدم وزوجه فيه ارتقاء، ثمّ انحدارهما منه والأرض هبوطًا، لا يلغي في دائرة الممكن أمل العودة إلى ذلك الكون متى ما تمّ رتقه كما كان أوّل مرة: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ}[153].

[153] العنكبوت: 20.

يُفهم من هذه الآية أنَّ الخَلقَ والنشوء قد أوجدا كونًا أوَّلًا: (كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ)، ثمّ أصبح الارتقاء فرصة، ولأنَّه فرصة؛ فلا ينبغي أن تضيع من أيدي من سُنحت لهم؛ ولهذا فأوّل المغتنمين لها استغفارًا وتوبة كان آدم عليه السّلام؛ فتاب الله عليه بأمل العودة إلى حيثما كان عليه قمّة.

وبما أنَّ الارتقاء لا يكون إلّا حيثما توجد القمّة المأمولة، إذن: فلا ارتقاء إلّا إلى حيثما هي كائنة؛ ولأنَّها قمّة كائنة وجودًا فهي وجود سابق على من يرغبها أملا لاحقا، ومن هنا، فالزّمن ليس هو ما نأمله، بل الذي نأمله ما يحتويه الزّمن وجودا؛ ولذلك فالزّمن هو الزّمن، فحيثما كان الماضي يكون المستقبل حاضرًا.

ومن ثمّ؛ فالأهداف التي تصاغ في خِطّة بحثيَّة في الزّمن الحاضر هي الأهداف المأمول إنجازها في الزّمن المستقبل الذي يوم أن تنجز فيه يكون هو الشّاهد: (الحاضر) على إنجازها، كما كان هو الشّاهد حضورًا يوم تحديدها وصياغتها.

فالكون الذي كانت بداية الخلق منه حاضرة، هو الكون الذي ستكون نهاية الخلق إليه حاضرة، أي: لا وجود لشيء إلّا في حاضرٍ، وبما أنَّ خلق الكون مُرتقا كان البداية، إذن: فالنّهاية لا تكون إلّا برتقه ثانية: (ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ) التي لا يمكن لنا معرفة كيفيّتها؛ لأنّ أمر معرفة الكيفيَّة الآخِرة مستحيل، ولأنَّه أمرٌ مستحيلٌ؛ فهو خارج دائرة الارتقاء إليه ممكنا.

ولأنَّه خارج دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع فلا إمكانيَّة لتصوّره، ولا إمكانيَّة لمعرفة كيفيَّته؛ ولذلك فسيظل المستحيل مستحيلًا وإن علمناه مستحيًلا: {وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ}[154].

أي: إنَّ نَشأة أخرى قد حُدّدت وستأتي لا محالة، وسينشأ الخلق عليها بعد أن ينتهي الكون تمدّدًا وبأيّة علّة، والاستحالة هنا، هي التي لا تكون إلّا ممكنا بين يدي الله، حيث لا استحالة أمامه.

ومن ثمّ؛ فبنو آدم يعرفون أنَّ أساس النّشوء الآدمي من الأرض، وكذلك يعرفون أنّ الأموات يتحلّلون وينتهون فيها أثرًا باليًا، ويدركون أنّ للحياة بداية ونهاية، ثمّ إنَّ للموت نهاية: (موت الموت)، ولهذا؛ فالمؤمنون يعرفون أنّ من بعد النّهاية بداية أخرى على كيفيَّة أخرى، ولا تكون إلّا مستحيلًا: (وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ).

ولذلك؛ فلا نشوء خَلقي مُعجز إلّا وفعل الخَلق يسبقه، ولا ارتقاء خُلقي إلّا ونمو الخُلق منشؤه، ومن هنا؛ فلا يلد الشيء المعجز إلّا من الشيء المعجز، وفي المقابل الخالق يخلق الشيء من لا شيء استحالة، كما هو استحالة خلق الكون وفتقه أكوانًا.

ولأنَّ الخَلق هو فعل الوجود الأوّل؛ فالنّشوء من بعده وجود آخر مُعجز، ومع أنَّه وجود آخر، فإنَّه لولا الوجود الأوّل ما كان شيئًا آخر؛ ولذا وراء كلّ نشوء مُعجز نشوء من ورائه نشوء واستحالة: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا

---

[154] الواقعة: 61.

النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}[155]. أي: لو أجرينا مقارنة بين النّشوء الأوّل: (الطّين) المعجز ثمّ: (النّطفة) المعجزة، والنّشوء الآخر جنينًا متكاملًا معجزًا؛ فلا نشاهد علاقة، ولكن مشيئة الخالق شاءت أن تكون بداية النّشوء مرحلة قابلة للنّمو والارتقاء من حالة إلى حالة أخرى تختلف عنها مشاهدة.

ولذلك؛ فلولا الطّين ما نشأت الأزواج، ولولا الأزواج ما نشأت النّطفة، ولول النّطفة ما كان المولود شيئًا آخر، وهنا، يصبح الخلق بين أيدي النّاس عجزًا واستحالة.

ومع أنَّ بداية النّشوء لم تكن على الكثرة، ولكن نهايته لا تكون إلّا عليها؛ فالبذرة الواحدة نشوء تنتج أكثر من سُنبلة، وفي دائرة الممكن ارتقاء السُّنبلة تمتلئ بذورا متعدّدة، وهذا يجعل عدد البذور المنتجة من البذرة الواحدة مئات؛ ولذلك فالتكاثر يتضاعف نموّا وكثرة؛ ليُسهم في إشباع حاجات الإنسان المتطوّرة مع تطوّره عددا ومعرفة.

ومن ثمّ، ينبغي أن يعمل بنو آدم كلّ ما في وسعيهم من أجل تحسين حالات النّمو وتحسين أحوالهم إلى ما يجب بلوغه نشوءًا وارتقاء؛ فالإنسان الذي يعلم أنّه في دائرة الممكن قادر على أداء العمل فلا ينبغي له أن ييأس من بلوغ غير المتوقّع نتيجة، ولأنّ دائرة الممكن لا تقتصر على المتوقّع فقط؛ فلِمَ لا ينتبه الجميع، ويعملون على تحقيق غير المتوقّع

[155] المؤمنون: 12 . 14.

تعليمًا، وإنتاجا، وعدلا، ورفاهيّة، وغزوا للفضاء حتى اكتشاف الأكوان طباقًا واكتشاف ما يضاف إلى المعارف الممكّنة من إحداث النُّقلة.

ولأنَّ النّشوء الخلقي يؤسّس إلى نشوء مُعجز من بعده نشوء مُعجز، كما هو حال نشوء الأرض التي من بعدها نشوء الأزواج، تمّ نشوء التزاوج من الأزواج كثرة؛ فينبغي أن تكون هذه معطية تلفت العقل الإنساني إليها؛ لينشئ من الأشياء أشياء أخرى تسهم في إشباع حاجاته المتطوّرة؛ إذ كلّما التفت الإنسان إلى الأرض معجزة، اكتشف شيئًا جديدًا يمدّه بالمزيد المعرفي؛ فالأرض خامات وثروات ثمينة، تملأ ظاهرها كما تملأ باطنها، فمن بلغها نشوءًا وارتقاء معرفيّا تمكّن من تشييد المزيد نشوءًا حتى معرفة المستحيل وبلوغه مستحيلًا، وفي المقابل من تُلهه نفسه شهوة؛ فلن يجد نفسه إلّا على حالة من الانحدار والدّونيَّة التي لا تزيده إلّا تقليل شأن.

فالإنسان الذي خُلق على قمّة النشوء ارتقاء، لو لم ينحدر بداية؛ لكان إلى يومه هذا على قمّة الزّمن الحاضر في حُسن خَلقه وحُسن خُلقه. ولكنّ الغفلة قد أخذته؛ فعصى ربّه؛ فانحدر إلى ما لا ينبغي، ثمّ حاول النّهوض، ولكنّه لا زال يحاول وهو بين أمل ويأس، أمل الارتقاء إلى ذلك الماضي، ويأس بلوغه بعلل الشّهوة التي لا ترى الأنا إلّا مركزًا على حساب الغير.

وعليه:

فالنّشوء لا يمكن أن يكون صفرا، بل الصّفر هو نقطة ما قبل وجوده أو نموّه؛ فالنّمو لا يبدأ إلّا من نقطة الصّفر، ولا ينتهي قمّة إلّا إليها، حيث التوقّف عن النّمو ارتقاء، أي: عندما يبلغ النّمو نقطة لا ينمو من بعدها شيئًا؛ تعدّ هذه النقطة صفرية؛ إذ لا شيء من بعدها إلّا الاستحالة وهي النقطة التي لا شيء من بعدها إلّا الانحدار إلى نقطة صفر البداية.

المُمكنُ ارتقاء

الارتقاء مكانة يُمكن أن يكون الإنسان عليها خَلقا، ويمكن أن يكون عليها قيمة لا تُبلغ إلّا بمزيد من الجهد العقلي والخُلقي، وفي المقابل هناك من يره تطوّرًا يطرأ على الكائنات الحيّة؛ فيغيّر حالتها من دُنيا إلى عُليا، من خلال ما يطرأ عليها من تغيّر في الجينات والسّمات؛ ولكنَّ الجينات الخَلقيَّة لم تكن نتاج تكيف بيئي حتى تتبدّل وتتغيّر مع تغيّر البيئات، بل هي خاصيَّة خَلقيّة تحافظ على الأجناس، حتى وإن بلغ الإنسان من العلم ما بلغه؛ فلا إمكانية له أن يغيّر الأجناس، وستظل الكائنات على ما هيّ عليه مختلفة، وإن لُعب بها جينيًّا، ولكن تحسين وتجويد أنواعها أصبح في دائرة الممكن بين متوقَّع وغير متوقَّع ارتقاء حتى النّهاية.

ولأنَّ الإنسان في دائرة الممكن بين متوقَّع وغير متوقَّع؛ فهو مؤهّل لأن يرتقي إلى ما هو أفضل قيمة، ولأنَّه كذلك فالأمل لا يفارقه؛ ولهذا فهو يبحث من أجل بلوغ القمّة التي لا تُبلغ إلّا بالمزيد العلمي والمعرفي،

والعمل المنتج، وإصلاح ذات البين، وتحدي الصّعاب بكلّ ما يمكّن من قهرها.

فالكائنات التي يظنّ البعض أنَّها متطوّرة، نعتقد أنّ التطوّر يستوجب إرادة تمكّن من اتخاذ قرار من وسط مجموعة بدائل، وهذه الخاصيّة غير متوفّرة عند الكائنات التي لم تُخلق في أحسن تقويم؛ ولذلك فالكائنات قابلة لأن تتغيّر، وفقًا لقاعدة التكيّف بأسباب الضّرورة الطبيعيَّة، وحتى إن دُرِب منها ما دُرّب أو عُلّم؛ فهو لن يتطوّر كما هو حال الإنسان وارتقاؤه؛ فالإنسان خُلق متميّزا بخصائص وصفات الارتقاء التي لم تكن من خصائص وصفات بقية الكائنات.

ولذلك؛ فالإنسان في دائرة الممكن ارتقاء يتذكّر ما يؤلم وما يفرح، ويؤهّل حاله عن تدبّر بما يمكّنه من العمل المنتج، وفي الوقت ذاته يفكّر في كيفيّة تمكّنه من بلوغ ما يجب أن يكون أفضل وأجود وأكثر ارتقاء.

ومع أنَّ الإنسان ارتقاء خُلق في أحسن تقويم، لكنَّه بعلّة المعصية والشّهوة والرّغبة قد انحدر هبوطا منذ خلقه الأوّل، ومع ذلك منذ تلك اللحظة التي قُبلت فيها توبته، ظلّ آدم ومن بعده بنوه على الأمل في حاضرهم، ومع أنَّه الأمل في الزّمن الحاضر، فإنَّه يتعلّق ارتقاء بما هو ماضٍ (تلك الجنّة التي خُلق فيها آدم)، وهو ما لم يتحقّق بعد.

ولذلك؛ فالتطوّر يمكن أن يكون خاضعا للمشاهدة مثل الإعمار وبناء الحضارات، وهذه من خاصيّة الإنسان التي لا يشاركه فيها غيره، ومن هنا يُصبح الارتقاء في دائرة الممكن يستوجب بحثا علميّا مضنيًا،

وجهدا ينجز وفقًا للأهداف المحدّدة، والأغراض التي من ورائها، والغايات المأمول بلوغها قمّة، وفي المقابل يمكن أن يكون التطوّر خاضعًا للملاحظة مثل السّلوك وما يطرأ عليه من تغييرات مقصودة، وهذه تشترك فيها كلّ المخلوقات بما فيها من خُلق في أحسن تقويم.

فالإنسان في دائرة الممكن، ارتقاؤه القيمي يُرسّخه قيمة في ذاته، قيمة تستوجب مزيدًا من الاحترام والتقدير والاعتبار؛ وذلك بما يفسح له مجال العدل الممكّن من العلم، والعمل، والتملّك، والتمدّد إلى النّهاية دون أن يكون له تمدّدٌ على حساب الغير.

وهنا؛ فالممكن ارتقاء هو المتاح تذكّرًا وتدبّرًا وتفكّرًا، وهو ما يمكن بلوغه قدرة واستطاعة، وهو ما لم يكن مستحيلًا حتى وإن كان صعب التحقّق، وهو الذي ليس له وجودٌ لو لم يسبقه وجود خَلق ونشوء، ومع ذلك وجوده لا يعدّ إن لم يلاحق الخَلق والنشوء ارتقاء.

ولأنَّه الممكِن ارتقاء فهو بين متوقَّع وغير متوقَّع؛ فالمتوقَّع منه هو الذي بحدوثه لا تحدث المفاجأة، ولا الاستغراب، ولا توضع علامات التعجّب. أمَّا غير المتوقَّع فهو الذي لا تتوافر معطيات حدوثه بين أيدي النَّاس، ومع ذلك يقع، ممّا يجعله في حالة تساوٍ نسبي مع المتوقَّع في دائرة الممكن؛ ولهذا إذا ما حدث غير المتوقَّع حدثت المفاجأة أو التعجّب والاستغراب.

فغير المتوقَّع يقع أو يحدث دون قراءات أو حسابات سابقة، أو نتيجة قصور في القراءات والحسابات السابقة على وقوعه، ممّا يجعله يقع: (هو كما هو) إثباتًا.

ومن هنا، ينبغي أن يتمَّ التعرُّف على غير المتوقَّع وعلى علله ومسبّباته لاحقًا ليتمَّ التعرُّف على نقاط الغفلة، أو القصور التي لم تؤخذ في الحسبان المتوقَّع.

فالمتوقَّع وغير المتوقَّع متغيران رئيسان في دائرة الممكن، التي فيها تتساوى فرص ظهور كلّ منهما بنسبة ثابتة قدرها (50%) والمتوقَّع يمكن أن يكون سالبًا، ويمكن أن يكون موجبًا؛ فالموجب منه لا يكون إلّا وفقًا لما هو مأمول، والذين لا يأخذون حذرهم يرسمون خططهم وسياساتهم وفقًا لِما هو موجب متوقَّع، وكأنَّ الحياة لا تُحفُّ بالمخاطر، وكأنَّ العلائق بين النَّاس لا تُبنى إلّا على الصّدق فقط؛ ولذلك فهم دائمًا يفاجؤون؛ كونهم لم يحدّدوا لغير المتوقَّع موضعًا.

وعليه:

ينبغي أن تُرسم الخطط والسياسات والاستراتيجيَّات وفقًا لدائرة الممكن التي تحتوي ما هو متوقَّع موجبًا وما هو متوقَّع سالبًا، وما هو غير متوقَّع موجبًا، وما وهو غير متوقَّع سالبًا.

وبما أنَّ الممكن ليس مستحيلاً؛ فعلى الإنسان أنْ:

. يفكّر فيما يفكّر فيه قبل أن يقرّر ويعمل.

. أنْ يخطّط لما هو غير متوقَّع مثلما يخطط للمتوقَّع.

. أنْ يعمل ارتقاء بلا تردّد ولا يأس، حتى يُرتَقَ الممكن بالمستحيل قمّة.

. أنْ يقبل تحدّي الصّعاب؛ فالصّعاب تُقهر، ولا مستحيل في دائرة الممكن، ولا استغراب، بل الاستغراب ألا يتمّ تحدّى الصّعاب التي تحول بين الإنسان وارتقائه قمّة.

وبالتّالي فمن يرسم الخطط والاستراتيجيَّات ويعد البرامج وفقًا لِما هو متوقَّع، عليه أن يعرف أنَّ ما يفكّر فيه معرّض لمواجهة غير المتوقَّع، ممّا يلفت انتباهه إلى التفكير في غير المتوقَّع بخطط بديلة تواجه ما يمكن مواجهته من مواقف أو أضرار أو مخاطر قد تحدث؛ ولذلك فالزّمن الحاضر هو زمن التخطيط والتدبّر والتذكّر والتفكّر، وهذا يعني: أنَّ دائرة الممكن هي التي فيها ينصهر الزّمن حاضرا، أي: إنّ التذكّر الذي يرتبط بما هو ماضٍ، لا يكون إلّا في الوقت الحاضر، وكذلك التفكّر الذي يتعلّق أمره بما لم يتحقّق بعد لا يكون إلّا في الوقت الحاضر، وفي الوقت ذاته يتدبّر الإنسان أمره وكأنَّه لا يعيش الزّمن إلّا حاضرًا. أي: إنَّ الذي يتذكّر في دائرة الممكن لا يجب أن ينظر لما يتمّ تذكّره من الماضي وكأنَّه لن يتكرّر، بل ينبغي أن يره وكأنَّه الآن يواجهه تحدٍّ؛ ممّا يجعله في وقته الحاضر متحدّيًا له بحلولٍ حاسمة، وهكذا ينبغي أن يفكّر فيما يمكن أن يواجهه مغالبة؛ حتى لا يحدث وتحدث المفاجآت المؤلمة التي تؤدّي إلى الانتكاسة أو الانحدار، بدلًا من أن تؤدّي إلى بلوغ القمّة ارتقاء.

فالممكن احتمالًا يسبق ما يمكن أن يكون محتملًا أو غير محتملٍ؛ ولهذا فلا يتحقّق الممكن إلّا في دائرة الحاضر، حتى وإن أصبح ذلك المتحقّق في دائرة الزّمان مسجّلًا؛ فالممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع في زمنه الحاضر يسبق حدوث الفعل؛ ومن ثمّ يظل الممكن تحت الانتظار إلى أن يتحقّق أو لا يتحقّق؛ ومن هنا يصبح للممكن مصادق تثبت حدوثه أو تبطل حدوثه.

فالممكن في زمنه الحاضر يُلاحق العبر والمواعظ، ويتزامن مع التدبّر، ويسبق المأمول حتى يتمّ بلوغه ارتقاء؛ ففي الزّمن الحاضر لا انتظار لشيء يعود إلّا استدعاء ذاكرة، ولا انتظار لشيء يأتي وهو لم يكن شيئًا، ولا شيء يحدث إلّا في الزّمن الحاضر.

وبما أنَّه في دائرة الممكن لا وجود للمستحيل؛ إذن فمن الممكن التفكير في المستحيل حتى معرفته مستحيلا، وعندها يدرك الإنسان أنَّه في حاجة لمزيد من الارتقاء، ومع أنَّ الإنسان يتوقّع ما هو ممكنٌ، فإنَّه قد لا يستطيع تحقيقه بأسباب قصور قدرته، ومحدودية إمكاناته، وعلى الرَّغم من ذلك فعليه أن يعمل مع من يمكّنه من الارتقاء تحدٍّ؛ فالصّعاب لا تصمد أمام التحدّي.

ولهذا؛ فالإنسان يتذكّر ويتدبّر ويفكّر في كلّ ما من شأنه أن يُظهر له ممكنًا، ويمكّنه من إنجازه، أو تحقيقه بغرض الارتقاء إلى ما هو غاية.

وبما أنَّ كلّ شيء ممكن؛ فلِمَ لا نفكّر فيه بلا قيود؟ حتى وإن وضعت عليه القيود علّة بأيّة علّة؛ فيجب أن تفكّ العلل مع القيود، ولكن إن لم تفكّ العلل والقيود؛ فعلامات الاستفهام والاستغراب وأفعال المواجهة ستكون ارتقاء في الميادين والشّمس في كبد السّماء؛ ولذلك فالاستغراب يَحدث عندما يَحدث غير المتوقَّع في الزّمن الذي ينتظر فيه ظهور المتوقَّع، وهنا تكمن المفاجأة، التي لا تظهر إلّا بغفلة عمّا هو غير متوقَّع.

ومع أنَّ في دائرة الممكن يتساوى حجم المتوقَّع مع غير متوقَّع؛ فإنَّ دائرة الممكن تظل واسعة؛ فمهما فكّرنا فلن نبلغ كلّ ما نفكّر فيه؛ فعلى سبيل المثال: البحث عن العمل، لو لم يكن ممكنًا، ما كان البحث عنه؛ ولهذا فالبحث عن العمل ممكن، والحصول عليه ممكن، وعدم الحصول عليه ممكن أيضًا. ولكن إذا قُدِّمت لك الإهانات التي لم تكن في الحسبان، وأنت تبحث عن فرصة عمل كما قُدِّمت إلى محمَّد أبو عزيزي بمدينة سيدي أبو زيد بتونس، الذي كان الأمر بالنّسبة إليه غير متوقَّع؛ وذلك في مقابل ما اتخذه من فعل (الاحتراق) الذي لم يكن هو الآخر متوقَّعا من قبل الذين قدّموا له الإهانات؛ ممّا ترتّب على الفعلين غير المتوقَّعين فعل ثالث غير متوقَّع، ألّا وهو الثورة، التي لم تطفئ نارها إلّا بسقوط نظام الرئيس التونسي زين العابدين بن علي من قمّة السُلّم السُّلطاني.

ولذا؛ فالعلاقة بين المتوقَّع وغير المتوقَّع هي علاقة قاعدة واستثناء؛ فحيثما كانت القاعدة كان الاستثناء متلازمًا معها، ومن هنا،

يجب التفكير وفقًا للقاعدة دون الغفلة عن الاستثناء، ومن يغفل عنها فليس له إلّا المزيد من المفاجآت.

وبما أنَّ الارتقاء ممكنٌ؛ فلا مستحيل في دائرة الممكن، حتّى وإن كان الصّعب يملأ نصفها، ومن هنا، وجب العمل على تذليل الصّعاب؛ كي تتيسّر الأمور ارتقاء؛ فالصّعاب إن لم تداهم ارتقاء، لا بدّ وأن تداهم من لم يداهمها، وحتى لا يحدث ما لم يحمد عقباه ينبغي تحدّي الصّعاب تهيؤًا، واستعدادًا، وتأهّبًا، وعملًا راقيًا تنجزه الإرادة.

ومع أنَّه لا صعب أمام مزيد من بذل الجهد ارتقاء، فإنَّه لا ارتقاء لخرق المستحيل؛ فمن المستحيل أن يكون الإنسان عالما بلا علم، وفي المقابل يمكن له أن يصبح عالما على الرَّغم من الصّعاب.

وعليه:

فالقاعدة: (تحدَّي الصِّعاب) أمَّا الاستثناء: (الاستسلام لها).

ولأنَّ الممكن ارتقاء يُمكّن من تحدّي الصّعاب، فَلِمَ لا يتهيأ الإنسان إليها قوَّة تدبّر؛ حتى يقهرها إرادة، ممّا يجعل التهيّؤ للعمل لا مكان فيه للتردّد في نفس المتهيئ لأدائه؛ ولذلك فمن يتوقّع أنَّ أداء العمل ميسَّر؛ فلا يستغرب إن واجهته صعاب تحول بينه وبين تنفيذه.

فالتهيّؤ في دائرة الممكن هو ارتقاء لأداء العمل الموجب؛ وكذلك هو ارتقاء لمواجهة ما يمكن أن يكون من فعل سالب؛ فكما تُرسم الخطط لتنفيذ العمل فهي تُرسم لمقاومة المعيقين له، ومتى ما بلغ الإنسان التهيؤ إرادة، بلغ القناعة المحفّزة والدافعة إلى تنفيذ العمل ومواجهة ما يعيقه من

صعوبات؛ ولذلك فالذين يتهيّؤون إلى ارتكاب أعمال التطرُّف بإرادة في معظم الأحيان هم يُقْدِمُون على تنفيذها دون تردّد، والذين يقاومون أعمال المتطرفين بإرادة هم الآخرون يقدمون على مقاومتهم ومقاتلهم بكلّ قوَّة، أمَّا أولئك الموظّفون الذين تُصدر لهم أوامر تنفيذ التطرُّف، أو أوامر مقاومته فلن يكونوا فاعلين، بل ستكون أيديهم على الزِّناد مرتعشة ، وهنا تكمن العلّة.

إذن: فمن تهيّأ واستعدَّ لعمل وأقدم عليه ليس بالأمر الهين أن يتهيّأ لِما يُغيِّره عن الاستمرار فيه، إلّا إذا فكَّر وتذكَّر وقَبِلَ إرادة أنَّ المعلومة في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع، لا تُصحح إلّا بالمعلومة الحاملة للحُجَّة، ومن هنا؛ فكلّما توافرت الأفكار والحُجج تجاه القضيَّة الخارجيَّة مثار الانتباه والاهتمام، كانت استجابة التهيّؤ للحدث أسرع، وكلّما تضاءلت الأفكار أو انعدمت، كانت عمليَّة التهيّؤ متباطئة لحين استجماع الأفكار عن الحدث الخارجي الذي يُودّ الوقوف عليه.

ولذا؛ فالتهيّؤ للقول يؤدّي إلى الاستعداد لأنْ يقال بإرادة، وكذلك التهيّؤ للعمل يؤدّي إلى الاستعداد لأن يُفعل بعد تأهّب.

ومع أنَّ الممكن ارتقاء لا استحالة فيه، ولكن إن لم يعقب التهيؤ استعدادٌ فلا إمكانية؛ حيث لا إرادة؛ ولذلك فإنَّ غياب الإرادة يغيّب كلًّا من التهيؤ والاستعداد، ومن ثمَّ تقوى درجة الاستعداد المترتِّبة على الإرادة والتهيّؤ بقوّتهما وتضعف بضعفهما.

ومع أنَّه لا إمكانية للارتقاء بلا إرادة، ولا تهيؤ، ولا استعداد، وحتى وإن اجتمعت في دائرة الممكن تظلّ منقوصة ما لم يتمكّن الإنسان من التأهب لأداء العمل وبلوغ الارتقاء قمّة.

فالتأهّب يؤجج في النّفس حرارة الاندفاع تجاه الهدف دون خوف مع إصرار على الإنجاز، ومن يتأهّب للشيء بعد تهيّؤ وإرادة واستعداد يستطيع في دائرة الممكن ارتقاء أن يُنفِّذ ما يشاء، وكيفما يشاء، ومتى ما يشاء.

ولأنَّ لكلّ فعل ردّة فعل، إذن: فمن يتأهّب لأداء الفعل ارتقاء لا بدّ وأن يكون متأهّبا لما يترتّب عليه من ردّات فعل، وإلّا سيفاجأ بما هو مؤلم.

وحتى لا تحدث المفاجآت في كلّ مرّة؛ فأخذ الحيطة والحذر ضرورة لمن شاء أن يتدبّر أمره بلا عِلل، ولكن هذه ليست الغاية، بل الغاية أن تسود الحياة بين النّاس بلا مغالبة، ولا هيمنة، ولا حرمان، ولا تمدّد على حساب الآخرين، ولا اتكالية على الغير، ومن هنا، تصبح الغاية هي تجاوز الحلّ المتجاوز للإصلاح وإن كان إصلاحًا مساندًا.

ولذلك؛ فالغاية من بعد الحلّ هي بلوغ المكانة الممكّنة من بلوغ رفعة الشّأن، وعيش النّعيم، وهذه مع أنَّها غايات، فإنَّها ستظل في دائرة الممكن ارتقاء بين متوقَّع وغير متوقَّع، والعاملون عليها هم وحدهم يتهيؤون لها، ويستعدّون إليها، ويتأهبون لحسم الأمر، ثمّ يفعلون ويعملون حتى يبلغوا الغايات غاية.

ولأنَّ النّشوء في دائرة الممكن ارتقاء يمكّن من بلوغ الغايات؛ فالمزيد من التّأهب إليه يُسرعِ بحركة إحداث النُّقلة مع تسارع امتداد الكون إلى النّهاية؛ ولهذا لن تستطيع تلك الأنظمة المعيقة للارتقاء أن تصمد أمام التسارع ارتقاء تجاه إحداث النقلة المأمولة، بل كلّ الأنظمة التي رَكِب أصحابها المصاعد إلى الأسطح، ولم يضعوا في حسبانهم أنَّه لا نزول إلّا من خلالها؛ فهم صَعدوها بلا سلالم، وبقوا هناك إلى أن أُسقِطَ بهم أرضًا.

ومن هنا، كان الفأر أكثر فطنة وذكاء من تلك القمم التي صعدت وبقيت هناك؛ فالفأر ذات مرّة سُئل:

لماذا أيّها الفأر عندما تشعر بخطر تبدأ اللعب بذيلك؟

فقال:

ألا يكون من الأفضل لي أن ألعب بذيلي بدلاً من أنْ ألعب برأسي؛ فأنا عندما ألعب بذيلي أفكر، ولكن عندما ألعب برأسي يُلعب بي.

وعليه:

فمن أجل ألا يتكرر اللعب بالرّؤوس، ينبغي أن يحيا النَّاس، ويموت الموت، الذي كتب عليهم بعلل الفقر، والمرض، والألم، ثمّ يُقضى عدالة على الهيمنة، والحرمان، والإقصاء، ويفسح المجال للحقوق أن تمارس، والواجبات أن تؤدّى، والمسؤوليات أن تُحمل، دون أن تكون الحاجات في حاجة للإشباع، ودون أن يكون من بعد العلم جهلا بذلك الصفر الذي من بعده أصبح الكون وجودًا متمدّدًا ومتسارعًا.

صدر للمؤلّف

صدر للمؤلّف 78 بحثا نشرت داخل ليبيا وخارجها.

صدر له (148) مؤلّفا منها خمس موسوعات.

أشرف وناقش 74 رسالة ماجستير ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثية:

1 . الخدمة الاجتماعيَّة والتنمية البشرية.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية والتركية.

المؤلّفات

1 . مستوى التحصيل العلمي بمرحلة التعليم المتوسط، طرابلس ليبيا، 1989م.

2 . الأصول الفلسفية لتنظيم المجتمع، منشورات جامعة طرابلس، ليبيا، 1992م.

3. فلسفة مناهج البحث العلمي، منشورات الجأ، 1995م.

4 . منهج تحليل المعلومات وتحليل المضمون، منشورات الجأ، مالطا، 1996م.

5 . سيادة البشر دراسة في تطور الفكر الاجتماعي، منشورات الجأ، مالطا، 1997م.

6 . المفاهيم العلمية دراسة في فلسفة التحليل، المؤسسة العربية للنشر وإبداع، الدار البيضاء، 1999م.

7 . البستان الحلم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1999م.

8 . التصنيف القيمي للعولمة، منشورات الجأ، مالطا، 2001م.

9 . الديمقراطية في عصر العولمة (كسر القيد بالقيد)، دار الجأ، مالطا،

2001م.

10 . نشوة ذاكرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004م.

11 . خماسي تحليل القيم، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

12 ـ منطق الحوار بين الأنا والآخر، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

13 ـ خدمة الفرد قيم وحداثة، دار الحكمة، 2006م.

14 ـ خدمة الجماعة رؤية قيمية معاصرة، دار الحكمة، 2006م.

15 ـ البرمجية القيمية لمهنة الخدمة الاجتماعيَّة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

16 ـ البرمجية القيمية في طريقة تنظيم المجتمع، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

17 ـ البرمجية القيمية في طريقة خدمة الجماعة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

18. الموسوعة القيمية لبرمجية الخدمة الاجتماعيَّة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

19 ـ البرمجية القيمية في خدمة الفرد، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

20 ـ مفاهيم في استراتيجيات المعرفة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

21 ـ المقدمة في أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، بيروت ـ دمشق، 2009م.

22 ـ موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2009م.

23 ـ ألستم من آل البيت، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

24 ـ مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

25 ـ خطوات البحث العلمي (من تحديد المشكلة إلى تفسير النتيجة)، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

26 ـ قواعد المنهج وطرق البحث العلمي، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

27 ـ أسماء حُسنى غير الأسماء الحسنى، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

28 ـ آدم من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

29 ـ نوح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

30 ـ إدريس وهود وصالح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

31 ـ إبراهيم وإسحاق وإسماعيل ولوط من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

32 ـ شعيب من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

33 . يعقوب ويوسف من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

34 . داوود وسليمان من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

35 . يونس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

36 . أيوب واليسع وذو الكفل وإلياس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

37 . موسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

38 . عيسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

39 . محمَّد من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

40 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، آدم ونوح، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

41 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، ادريس ويعقوب ويوسف، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

42 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، أيوب وذو الكفل واليسع والياس، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

43 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، موسى وهارون وعيسى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

44 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، يونس وزكريا ويحيى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

45 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولوط، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

46 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، هود وصالح وشعيب، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

47 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، داوود وسليمان، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

48 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، النبي محمَّد، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

49 . موسوعة صفات الأنبياء من قصص القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

50 . موسوعة الأنبياء من وحي القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

51 . التطرُّف من التهيّؤ إلى الحلّ، المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

52 . ألسنا أمةً وسطا، ابن كثير، دمشق . بيروت، 2011م.

53 . المنهج وطريقة تحليل المضمون، ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2011م.

54 . الإرهاب (بين قادحيه ومادحيه) المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

55 . الخوف وآفاق المستقبل، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2011م.

56 . سُنن التدافع، شركة الملتقى للطباعة وانشر للطباعة والنشر، بيروت: 2011م.

57 . خريف السُّلطان (الرَّحيل المتوقَّع وغير المتوقَّع) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

58 . من قيم القرآن الكريم (قيم إقداميّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

59 . من قيم القرآن الكريم (قيم تدبّرية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

60 . من قيم القرآن الكريم (قيم وثوقيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

61 . من قيم القرآن الكريم (قيم تأييدية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

62 . من قيم القرآن الكريم (قيم مناصرة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

63 . من قيم القرآن الكريم (قيم استبصارية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

64 . من قيم القرآن الكريم (قيم تحفيزية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

65 . من قيم القرآن الكريم (قيم وعظية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

66 . من قيم القرآن الكريم (قيم شواهد) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

67 . من قيم القرآن (قيم مرجعيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

68 . من قيم القرآن الكريم (قيم تسليمية) شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

69 . من قيم القرآن الكريم (قيم تسامح)، شركة الملتقي للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

70 . من قيم القرآن الكريم (قيم تيقُّنيّة)، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

71 . الرفض استشعار حرية، دار الملتقى، بيروت، 2011م.

72 . تقويض القيم (من التكميم إلى تفجّر الثورات)، شركة الملتقى، بيروت، 2011م.

73 . ربيع النَّاس (من الإصلاح إلى الحلّ) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011م.

74 . موسوعة القيم من القرآن الكريم، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2012م

75 . أسرار وحقائق من زمن القذافي، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ودار المختار طرابلس، 2013م.

76 . وماذا بعد القذافي؟ المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

77 . ثورات الرّبيع العربي (ماذا بعد؟) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

78 . العزل السياسي بين حرمان وهيمنة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

79 . السياسة بين خلاف واختلاف، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 3014.

80 . الهويّة الوطنية بين متوقّع وغير متوقَّع، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014.

81 . العفو العام والمصالحة الوطنية، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

82 . فوضى الحلّ، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

83 . بسم الله بداية ونهاية، القاهرة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، 2015.

84 . من معجزات الكون (خَلق . نشوء . ارتقاء)، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2016م.

85 . مقدّمة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

86 . موسوعة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

87 . آدم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

88 . إدريس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

89 . نوح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م 89 .

90 . هود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

91 . صالح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

92 . لوط من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

93 . إبراهيم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

94 . إسماعيل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

95 . إسحاق من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

96 . يعقوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

97 . يوسف من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

98 . شعيب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

99 . أيوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

100. ذو الكفل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

101 . يونس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

102 . موسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

103 . هارون من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

104 . إلياس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

105 . اليسع من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

106 . داوود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

107 . سليمان من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

108 . زكريا من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

109 . يحيى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

110 عيسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

111 . محمّد من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

112 . الدّعاء ومفاتيحه، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2017م.

113 . صُنع المستقبل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

114 . الفاعلون من الإرادة إلى الفعل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

115 . مبادئ التنمية البشرية، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

116 . من الفِكَر إلى الفِكْر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

117 . التهيؤ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

118 . منابع الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

119 . الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

120 . المبادئ الرئيسة للسياسات الرّفيعة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2018م.

121 . تحدّي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

122 . الواحدية من الخلق إلى البعث، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

123 . مبادئ تحدي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

124 . المعلومة الصائبة تصحح الخاطئة (من الخوف إلى الإرهاب) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

125 . الممكن (متوقَّع وغير متوقَّع) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

126 . مبادئ فكّ التأزّمات، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

127 . الأهداف المهنيّة ودور الأخصائي الاجتماعي، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

128 . تصحيحا للمفاهيم (فاحذروا)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

129 . العدل لا وسطية ولا تطرف، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

130 . غرس الثّقة (مبدأ الخدمة الاجتماعيَّة)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

131 . مفاهيم الصّلاة والتسليم على الأنبياء، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2018م.

132 . الخدمة الاجتماعيَّة (قواعد ومبادئ قيميّة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

133 – كيفيّة استطلاع الدراسات السَّابقة مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

134 – الخدمة الاجتماعيَّة (تحليل المفهوم ودراسة الحالة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

135 – الخدمة الاجتماعيَّة (مبادي واهداف قيمية) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

136 – الخدمة الاجتماعيَّة (مفاهيم مصطلحات)، مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

137 – التنمية البشرية (كيف تتحدّى الصّعاب وتصنع مستقبلًا)، مكتبة القاضي، القاهرة، 2018م.

138 - مبادئ الخدمة الاجتماعيَّة (تحدّي الصّعاب وإحداث النُّقلة) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

139 _ الإرهاب بين خائف ومخيف، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

140 _ التطرُّف من الإرادة إلى الفعل، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

141 _ البحث العلمي (المنهج والطريقة) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

142 _ العدل ينسف الظلم، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

143 _ تقويض الإرادة، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

144 _ القوّة تفكّ التأزُّمات، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

145 _ إحداث النُّقلة تحدٍّ، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

146 _ نيل المأمول قمّة، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020

147 _ نحو النظريّة خلقًا، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

148 _ نحو النظريّة نشوء، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

المؤلّف في سطور

أ د. عقيل حسين عقيل

مواليد ليبيا 1953م

بكالوريوس آداب 1976م بدرجة الشّرف الأولى جامعة الفاتح (طرابلس).

ماجستير تربية وتنمية بشرية جامعة جورج واشنطن 1981م مع درجة الشّرف.

. دكتوراه في الخدمة الاجتماعيَّة.

. أستاذ بجامعة الفاتح كلية الآداب (طرابلس).

. شغل منصب أمين تعليم بلدية طرابلس (1986 . 1990).

. انتخب من قبل مؤتمر الشعب العام مفتشا عامًّا لقطاع الشؤون الاجتماعيَّة، ثمّ كلّف بالتفتيش على وزارتي التعليم العام والتعليم العالي 2006م.

. شغل منصب أمين التعليم العالي (وزيرا) 2007 . 2009م.

. انتخب أمينا عاما للتنمية البشرية بأمانة مؤتمر الشّعب العام 2009م.

. صدر للمؤلّف 78 بحثا نشرت داخل ليبيا وخارجها.

. صدر له (148) مؤلّفا منها خمس موسوعات.

. أشرف وناقش 74 رسالة ماجستير ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثيَّة:

1 . الخدمة الاجتماعيَّة والتنمية البشرية.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية والتركية.